تحسين علي كريدي

أوراق لخريف أحمر

رواية

تحسين علي كريدي

أوراق لخريف أحمر

رواية

أوراق لخريف أحمر/ تحسين علي كريدي
الطبعة الاولى: 2021
رقم الإيداع(1508) في دار الكتب والوثائق العراقية
ISBN:978-9922-648-28-6
E-mail: tahseen8234 @gmail.com
إصدار الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق ـ بغداد

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للاتحاد العام للادباء والكتاب في العراق حسب قوانين الملكية الفكرية لعام 1988. ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي.

تصميم الغلاف والإخراج الفني: الفنان كريم سعدون

اقتضى التنويه إلى أن أحداث الرواية، هي من نسج مخيلة الروائي، وأيضاً أن كل تصرف وسلوك سيء، لشخوص من جنسيات متعددة، ذُكرت خلال السرد؛ لا يمثل ثقافة البلدان التي ينتمون إليها.

((في أوقات السلام، الأبناء يدفنون آباءهم.
في الحرب، الآباء هم الذين يدفنون أبناءهم.))

المؤرّخ الإغريقي
هيرودوت

– ١ –

بغداد صيف عام ٢٠١٥

بعد أسبوع من مواراة جسد والدي الثرى، تفرق عنّي معظم المعزين؛ أما خلال الأسبوع الثاني، فلم يتبقَ سوى عماتي الخمس، وأولادهن وأزواجهن؛ وهن أيضاً بدأن الانسحاب الواحدة تلو الأخرى، كشجرة نفضية داهمها الخريف، فتخلت عنها أوراقها، وعلى أي حال فإن الوضع كان أقرب إلى ملتقى اجتماعي وسياسي، منه إلى مأتم؛ باستثناء اليومين الأولين وعمتي (كوثر) التي ما انفكت تنعى والدي، وكانت آخر المتبقين؛ ليس لأنها الأقرب إلى والدي من بقية عماتي فحسب؛ بل لأن زوجها هو خالي عليٌ، شقيق والدتي. اعتذرت هي الأخرى مني، قائلة بصوت بحَّ من كثرة البكاء:

– الأولاد قربت امتحاناتهم، ويتوجب عليَّ تدريسهم.

فقلت لها بدون أدنى تردد:

– لا بأس يا عمتي اذهبي، لا تقلقي عليَّ، سأكون بخير.

نظرت إليَّ نظرة متشككة، وقالت:

– أعددتُ لك طعاماً يكفيك ليومين، وضعته في البرّاد. لا يمكنني المجازفة بإعداد كمية أكبر من الطعام؛ لأن

التيار الكهربائي ينقطع باستمرار، وأخشى عليه من التلف.

- أشكرك يا عمتي.
- سأعرج عليك بين الحين والآخر، لأغسل ملابسك وأنظف البيت؛ أمّا الطعام، فسأرسله لك مع خالك علي، من حين لآخر. لو طاوعتني وقبلت الإقامة معنا.
- أنتِ تعرفين أنه ليس بوسعي ترك البيت فارغاً، فلا تكلفي نفسك يا عمتي، أستطيع تدبر أمري بنفسي، لقد اعتدت ذلك.
- ولكن يا ولدي، من غير المستحسن أن تبقى لوحدك في البيت، بلا أنيس.

صَمَتَتْ قليلاً، ثم أردفت:

- أفْضَلُ حلٍ لك هو أن تتزوج، فأنت لا يعوزك شيء، شابٌ وسيمٌ، ولديك شهادة جامعية، وبيتك ملكك لوحدك. أنت في السابعة والعشرين من العمر، وأقرانك تزوجوا منذ أعوام ولديهم الآن أولاد؛ تزوج يا ولدي، واملأ هذا البيت بالبهجة والأولاد، بعد أن غادره سكانه قبل أوانهم، أنت اليوم، الذكر الوحيد المتبقي الذي

يحمل اسم أسرتنا؛ ولا سامح الله وحدث لك مكروه، فسيندثر ذكر العائلة، إلى الأبد.

دمعت عيناها، وقالت وهي تنتحب:

- يا ربي! لِمَ كتبت على هذا البيت الحزن والشقاء؟

كانت عمتي (كوثر) محقة في كوني الوحيد الذي يحمل اسم العائلة، فجّدي لم يكن له أشقاء؛ إذ توفي والده شاباً، ولم يُخلّف غيره، فكان حلم جدي هو أن يملأ البيت بالصبية، فأتته النتيجة خلاف ما كان يحلم به، خمس بنات ووالدي؛ ولكان جدي استمر في الإنجاب بعد قدوم عمتي (كوثر) إلى الدنيا؛ علّهُ يحظى بذكر آخر، لولا ظهور سورة الكوثر له، عندما فتح المصحف الشريف لاختيار اسم للمولود الجديد منه، لِما لتلك السورة من دلالة في مخاطبة الرسول (ص)؛ من أنه لن تكون له ذرية من الأولاد، وإن الله يعده بنهر في الجنة عوضاً عن ذلك؛ فكانت عمتي (كوثر) آخر العنقود.

أما والدي، فلم يشغل باله بذلك الموضوع كثيراً؛ لأنه كان يَعدُّ تربية الأطفال مسؤولية كبيرة ومرهقة، وكلما قلَّ عددهم؛ قَلَّتْ المسؤولية أيضاً؛ ورغم ذلك، كان لي فيما مضى شقيق آخر اسمه عَلِيّ، وشقيقة اسمها فاتن، كانا أصغر مني؛ لكنهما

رحلا عن هذه الدنيا، فضلاً عن أمي؛ أما أبي فكان آخِر الراحلين.

أشعلتُ سيجارة، وقلت لها معترضاً:

- ولكن يا عمتي، نحن ما زلنا في فترة حداد! ثم إني عاطل عن العمل! من يزوج ابنته لعاطل؟ وكيف سأتدبر نفقات الزواج؟ وأنت تعلمين أن أبي لم يترك لي أية مدخرات.
- يا حسن، يا ولدي، ألف واحدة تتمناك على وضعك هذا؛ ما الذي ينقصك؟ فأنت شاب، وابن عائلة معروفة، وعلى الأقل، ترك لك والدك هذا المنزل الذي يقع في أرقى أحياء بغداد ـ شارع فلسطين ـ والله لو كانت (فاطمة) ابنتي في سن الزواج؛ لما تمنيت أن أزوجها لأحد غيرك، ثم إن سيارة الأجرة التي تركها لك والدك ـ رحمه الله ـ بحالة جيدة، وكانت مصدر رزق لا بأس به؛ فلم لا تواصل عمل والدك، لغاية ما يفرجها الله عليك، وتتوظف بشهادتك الجامعية؟

جربت من قبل العمل على سيارة الأجرة، ولم أطقه، فهو يتطلب صبراً كبيراً، وأعصاباً حديدية؛ فالشوارع مزدحمة وشبه مقطوعة؛ بسبب التفجيرات المستمرة ونقاط التفتيش، والسباب

والشتائم يكاد لا يفارق ألسنة السائقين، أما الركاب؛ فحدث ولا حرج؛ من طفل يتبول على المقاعد، إلى مريض يتقيأ، أو عجوز مصاب بالخرف لا يتذكر محل سكناه، فتمضي نهارك في البحث عن أهله؛ بدافع الانسانية. والدي ـ رحمهُ الله ـ كان صبوراً وتحمل كل ذلك؛ أما أنا، فضيّقُ الصدر، وأعصابي سريعة التلف، وسرعان ما أجد نفسي من غير وعي مني؛ أخوض في شجار يفضي إلى ما لا يحمد عقباه، كما أن السيارة ليست بأفضل حال، ويتوجب عليَّ من حين لآخر، إصلاحها وإنفاق مبالغ كبيرة عليها.

قلت لها بيقين قاطع:

- إنها مهنة لا تناسبني.
- ما دام الأمر كذلك، فأنا أقترح عليك بيع المنزل، وبوسعك شراء منزل مماثل بجوارنا، في (حي جميلة) بنصف ثمنه، وبالنصف الآخر تستطيع أن تدير محلاً للجملة، وتجني من ذلك الكثير من المال، التجارة هي مهنة جدك ووالدك من قبل؛ ولولا الحظ السيء الذي أصابنا؛ لكنا اليوم في أفضل حال. لابد وأنها عين الحسد يا ربي!

قلت لها بثقة بالغة:

- لا شأن للحسد فيما حل بنا؛ الحروب هي السبب، اللعنة عليها وعلى من أشعلها.

ما ذكرته عمتي(كوثر) بشأن علاقة عائلتنا بالتجارة، كان صحيحاً؛ فقد كان جدي ميسور الحال، ويدير متجراً لبيع الملابس بالجملة، يقع في منطقة تحت التكية، قرب سوق الشورجة؛ وكان يدر عليه الكثير من المال، مكنه من شراء البيت الواسع الذي تبلغ مساحته ستمائة متر، والذي أسكن في جزء منه حالياً، وهو ما ورثه والدي عن جدي بعد وفاته.

ولكن جدي الذي كان يعاني من ارتفاع ضغط الدم، أصيب بشلل نصفي أقعده البيت. حدث ذلك عند منتصف سبعينيات القرن الماضي، فاضطر والدي الذي كان طالباً في المرحلة الأخيرة من الإعدادية، أن يتكفل إدارة المتجر بدلاً عنه؛ ولكن الثمن الذي دفعه كان فشله في اجتياز امتحان البكلوريا؛ فسيق إلى الخدمة الإلزامية عام ١٩٧٩، وكان حينها في الحادية والعشرين من العمر.

وهنا أوكل أمر إدارة المحل، إلى زوج كبرى عماتي ـ كواكب ـ أثناء غياب والدي، وبالطبع كان ذلك مقابل أجر كبير، واكتفى والدي بمراجعة الحسابات أثناء الإجازات الدورية التي كانت تمنح له.

كانت الأمور تجري على خير وجه، لغاية اندلاع الحرب العراقية ـ الإيرانية؛ إذ استدعي زوج عمتي لخدمة الاحتياط، شأنه شأن الكثير من الرجال، فاضطر والدي للاستعانة بالعامل المصري الذي كان يشتغل عندهم في المتجر منذ سبع سنين تقريباً، ليديره؛ لأنه محل ثقة ومجرب.

كان المصري، واسمه ـ محروس ـ شاباً متديناً، ومواظباً على الصلاة. جبينه موسوم ببقعة سوداء من كثرة السجود، ولم تؤشَّرْ عليه أية شائبة في أمانته أو أخلاقه، وكان جدي يمتدحه كثيراً قائلاً:

– أقصى أمنية لي، هي تزويج بناتي لأشخاص على شاكلة وخُلق محروس.

ذات يوم، عاد والدي في إجازة من الخدمة العسكرية، وذهب ليتفقد المحل كما في كل مرة؛ فأصيب بصدمة مهولة، عندما وجد أن البضاعة والعامل المصري، قد اختفيا من غير أثر، وعندما استعلم الخبر من أصحاب المحلات المجاورة، أخبروه أن (محروس) باع كل البضاعة بأسعار مخفضة. وعندما سألوه عن السبب؛ أخبرهم أنه فعل ذلك بناءً على رغبة والدي بتصفية المحل، فصدقوه.

توفي جدي كمداً جراء ذلك، واضطر والدي لبيع المتجر، على الرغم من أن جدتي قدمت له مدخراتها وحليّها، ليستمر في مزاولة التجارة. كما عرض عليه معارفه من التجار، بضاعة بطريقة الدفع بالآجل، لكنه رفض كل ذلك؛ لأن المشكلة لم تكن تتعلق بالمال، بقدر تعلقها بمسألة عدم التفرغ لإدارة المحل، وفضَّل شراء سيارة أجرة، يعمل عليها أثناء الإجازات، ليغطي جزءًا من نفقات العائلة.

في بادئ الأمر، كان الحمل ثقيلاً على والدي، بيد أن عماتي سرعان ما تزوجن الواحدة تلو الأخرى، فخف الحمل عن كاهله؛ ولكن إلى حين، إذ أخذن يطالبن بحصصهن من الميراث، وأعني بذلك المنزل؛ في بداية الأمر كانت المطالبات مجرد تلميحات خجولة، ولكن ما إن توفيت جدتي، حتى أصبحت تأخذ شكلاً علنياً لا لبس فيه.

كانت جدتي قد باعت سهمها من الإرث قبل وفاتها، لعمتي (بشرى) المتزوجة من رجل ميسور الحال؛ فعلت ذلك لكيلا تُحَمِّل والدي كلفة دفنها ومراسيم العزاء عندما يحين أجلها، والتي تكون عادة باهظة.

جميع عماتي آثرن بيع حصصهن، أما والدي فرفض البيع؛ لأنه لم يشأ مغادرة المنطقة التي ترعرع فيها منذ طفولته. وفي

نهاية المطاف جرت تسوية الموضوع مع مشترٍ تكريتي، وافق على شراء حصصهن وفرز ما تبقى لوالدي، وهي تقريباً ربع مساحة البيت.

عمتي كوثر كانت آخر من تزوج، وحينها لم يعد يشغل البيت سواه، بالضبط مثلما حدث معي، وكأنه تكرار للعنة نتوارثها؛ فأخذت تحض والدي على الزواج بعد أن بقي وحيداً في المنزل. ونزولاً عند رغبتها، اقترن والدي بوالدتي، التي هي شقيقة زوج عمتي كوثر، وذلك عام ١٩٨٧؛ لأكون أنا الثمرة الأولى لذلك الزواج، بعد عام من ذلك التأريخ.

قَدِمتُ إلى هذه الدنيا، بعد وقف إطلاق النار بين العراق وإيران، بأربعة أيام. وكان والدي ملتحقاً إلى وحدته التي تقبع على مرتفع (كردمند)، في شمال العراق، قبل أسبوع واحد من ولادتي التي جاءت مبكرة، ومن المتعذر إيجاد وسيلة للاتصال به، أو قدومه في وقت مبكر، فتكفل خالي الذي كان مُجازاً حينها، باختيار اسم لي، فسمّاني (حسن).

قطعت عمتي سلسلة تفكيري عندما سألتني:

- ما رأيك فيما قلت؟

قلت لها:

- سأفكر بالموضوع حتماً، اذهبي أنت فلديك أسرتك التي يتوجب عليك رعايتها؛ أما أنا فسأتدبر أمري، فلست صغيراً.

بعد أن أنهت عمتي كلامها معي، لم تغادر مباشرةً، بل بقيت نحو عشر دقائق، لربما كانت تعاني شعوراً طاغياً بالذنب؛ لأنها ستتركني لوحدي. ثم أخذت تنشج وتردد:

- (يا هلي صار البيت خالي. بس صوركم ظلت گبالي).

نشيجها هيج مشاعري، وكنت على وشك البكاء أيضاً؛ لكني تجلدت كثيراً، وكتمت حزني ورغبتي في البكاء؛ لأني إن فعلت ذلك لما غادرتْ.

بحدود الساعة التاسعة مساءً، جاء خالي علي ليصطحب عمتي، وكانت معه ابنته فاطمة الحسناء ذات الأربعة عشر ربيعاً؛ زهرة لم تتفتح بتلاتها بعد، ولم تفارقها ملامح الطفولة.

بعدما بقيت لوحدي، حاولت قتل الوقت بمتابعة التلفاز، لأنني لم أجدد اشتراك الإنترنيت بسبب انشغالي بالعزاء؛ ولكن سرعان ما شعرت بالسأم، وغالبني النعاس، فاضطجعت على الأريكة في الصالة، محاولاً أخذ قسطٍ من النوم؛ ولكني لم أتمكن من إغماض عيني؛ لأن أطياف أسرتي التي قضى جميع أفرادها،

قتلاً اجتاحت تفكيري كشريط سينمائي درامي، فتذكرت قولاً مأثوراً للمؤرخ الإغريقي هيرودوت: " في أوقات السلام، الأبناء يدفنون آباءهم.. في الحرب، الآباء هم الذين يدفنون أبناءهم " فأي وصف يا ترى أطلقه على وضعي وما مررت به؟ أنا الذي دفن جميع أفراد أسرته!

والدتي وشقيقتي فاتن، رحلتا عام ٢٠٠٦، وبعد أقل من عام، التحق بهما شقيقي الصغير علّي.

أبي كان آخر الراحلين. في يوم مقتله، كان قد توقف ـ كدأبه بعد أن ينهي عمله ـ عند أحد محلات بيع الخمور في باب المعظم، عندما أمطرتهم سيارة يستقلها متشددون يحاربون ظاهرة بيع (المنكر)، بوابل من رصاص أسلحتهم الأتوماتيكية، فسقط والدي جريحاً، ولم يُبدِ أحد من المارة المساعدة له؛ على الرغم من أن مدينة الطب، لا تبعد سوى مئات الأمتار عن مكان الحادث؛ لربما لظنهم بأن ـ سكيراً مثله ـ يستحق أن ينزل به مثل ذلك العقاب، أو أن أصحاب السيارات لم يرغبوا أن تلطخ الدماء مقاعد سياراتهم.

في نهاية المطاف، قَدِمت سيارة الإسعاف، لكنها قدمت متأخرة كثيراً؛ لأنه كان في النزع الأخير.

توفي والدي جراء إصابته برصاصة اخترقت كبده، ولو أمهله قاتلوه قليلاً؛ لتوفي في غضون بضعة أشهر، بسبب تشمّع الكبد الذي بدت أعراضه واضحة على جسده؛ بسبب إدمانه على تناول المشروبات الكحولية.

لم يعلم والدي أن الطريقة التي اتبعها للتغلب على الخوف من الموت قتلاً أثناء الحرب مع إيران؛ ستقوده في نهاية المطاف، إلى ذات الميتة.

– ٢ –

حكى لي والدي قائلاً: (لن تعرف معنى حقيقياً للإذلال؛ إلا عندما تساق إلى الجيش. فحتى كلمة يساق لا تنطبق على البشر، بل على الماشية. نعم يا ولدي، تدخل الجيش فتنسى أنك كنت إنساناً في يوم ما، وتتعرض لشتى أنواع الإهانات والضرب، وهذا يجري وفق نظام صارم من مخلفات ضباط الاستعمار البريطاني، الذين أسسوا الجيش العراقي، والذي تخلوا عنه هم لاحقاً، بينما بقيت الأنظمة المتعاقبة على العراق متشبثة به.

خدمت في صنف المخابرة، طيلة السنوات الست الأولى من الحرب مع إيران، في مدينة تكريت، على البدالة العسكرية. فكنت أنعم بالأمان وراحة البال، بعيداً عن الحرب وأهوالها؛ وكل ذلك بفضل الرشوة التي كنت أمنحها لآمر الوحدة، ليبقيني فيها.

ولم تكن إدارة البدالة مهمة سهلة كما تظن؛ إذ كان يتوجب عليَّ تلبية طلبات الضباط من الاتصالات بأسرع وقت ممكن، على الرغم من أن خطوط الاتصال كانت محدودة؛ ولذلك وضعت جدولاً في الأولويات. فالضباط الأعلى رتبة، لا ينبغي جعلهم ينتظرون؛ ريثما ينهي الضباط الأقل رتبة اتصالاتهم.

ولكن ذلك ليس بالمطلق، فلكل قاعدة استثناء؛ فهنالك ضباط أقل رتبة، ولكنهم أعلى شأناً؛ فهم متنفذون بحكم صلة القرابة مع رأس النظام الحاكم. وعلى الرغم من أن هذه القاعدة كانت معروفة، وشائعة لدى جميع المخابرين؛ إلا أن الخطر الحقيقي كان يأتي من مكان آخر، إنه وبكل بساطة، المزاح بين المخابرين أنفسهم؛ إذ يتصل بك مخابر من بدالة أخرى مقلداً صوت الآمر بصورة احترافية؛ تصدق فيها بلا أدنى ريبة، أن المتصل هو فعلاً الآمر، طالباً منك أن توصله بالبيت، فتتصل بزوجته وتقول لها :(السيد الآمر معك على الخط). فتنتظر الزوجة طويلاً، ثم تأتيك الشتيمة منها، والعقاب من زوجها. وبسبب كثرة ذلك المزاح؛ يقع المخابرون ـ في كثير من الأحيان ـ في ورطٍ كبيرة. لكن الورطة الأكبر تحدث عندما يتصل بهم ضابط حقيقي، ويظنون أنه مخابر من بدالة أخرى يمزح معهم، فيقومون بشتمه، فيعاقبون بالسجن والنقل. وكانت لدي طريقتي الخاصة لكشف تلك الألاعيب. فعندما يُطلب مني الاتصال ببيت أحد الضباط، لا أتصل مباشرة، بل أتأنى لبضع ثوانٍ، ثم أبلِّغ الضابط أني اتصلت بالبيت، ولا أحد يجيب، وإنني سأحاول ثانية. فإن نفى الضابط أن يكون قد طلب مني ذلك؛ أعلم حينها بأنه مقلب، فأعتذر وأقول له أن

الأمر التبس عليَّ مع ضابط آخر؛ وإن شدد عليَّ بضرورة المحاولة ثانية؛ أفعل ذلك على الفور.

ولكن دوام الحال من المحال كما يقول المثل. فالهجوم المباغت الذي شنته إيران على قضاء (الفاو) الواقع جنوبي البصرة، والذي يعتبر ميناؤها نافذة العراق البحرية على العالم، قلب الاوضاع تماماً، رأساً على عقب.

حدث ذلك في الأيام الأولى من شهر شباط عام ١٩٨٦، عندما بدأت إيران هجوم مخادعة تعبويّة، على قاطع شرق القرنة، بينما أرسلت في الوقت ذاته، عبر شط العرب، العديد من الضفادع البشرية، لتتسلل خلف خطوط القوات العراقية القليلة العدد نسبياً، والتي كانت حسب قناعة القيادة العسكرية كافية، مع وجود مانع مائي مثل شط العرب، يفصل بين الجيشين.

كانت تلك هي المرة الأولى التي تحصل فيها القوات الإيرانية على موطئ قدم داخل الأراضي العراقية، وهذا الشيء عدته القيادة، وصمة عار تحط من كرامتها، فتصرفت بردود أفعال هستيرية لاسترداد الفاو، وزجت على الفور بوحدات جديدة إلى المعركة، ومنها الوحدة التي كنت أخدم فيها.

ذلك التغيير المفاجئ الذي لم أعهده من قبل، سبب لي صدمة كبيرة؛ فبين ليلة وضحاها انتقلت من حصني الآمن ـ تكريت ـ إلى قلب المعركة مباشرة.

سلموني خوذة عسكرية، وبندقية كلاشينكوف، وجعبة بستة مخازن، وبطانيتين عسكريتين، وأصعدوني على متن شاحنة نقل نوع إيفا ـ ألمانية الصنع ـ لتنطلق بنا نحو مصيرنا المجهول، إلى الفاو.

كان الوجوم والحزن مخيمين على الجنود الذين بدوا وكأنهم معزون حضروا للمشاركة في مأتم فقيد عزيز؛ وليس من شيء أعز على المرء، من نفسه؛ فالكل يعي أنه لم يكن ذاهباً إلى نزهة؛ بل إلى معركة شرسة، سيموت فيها بعضهم، ولا ضمان لأحد؛ ألّا يكون من بين القتلى، بل ذلك متروك للحظ فقط.

ذرفت عيناي دموع الحزن. ولم أكن الوحيد الذي تأججت مشاعره، فالجميع كان يفعل ذلك، وإن بدا بعضنا جَلِداً ومتماسكاً؛ ولكنهم كانوا يبكون في سريرتهم؛ فالأخبار الواردة لا تسر أبداً، والقتال كان شرساً على نحو غير معهود، وأفواج بأسرها أبيدت.

لكن الشيء الأشد إيلاماً؛ حدث أثناء مرور الرتل العسكري بأطراف بغداد، فقد انقبض قلبي من الألم؛ لأنه لم يكن بوسعي

هذه المرة زيارة بيتنا الذي يبعد بضعة كيلومترات عنا، ولو لبضع دقائق؛ لتحية عائلتي، لتوديع والدتي على الأقل. راودتني حينها، فكرة القفز من ناقلة الجند والذهاب إلى المنزل، ولكن الشجاعة خانتني على الإقدام على ذلك؛ فلو قُدر لأي مفرزة من مفارز الحزب، أو الانضباط العسكري المنتشرة في كل مكان، الإمساك بي؛ لكان الإعدام هو مصيري لا محالة. وقلت لنفسي: ما دام طائر الموت يحوم فوق رأسي؛ فالأولى الموت في أرض المعركة؛ فعلى الأقل حينذاك، ستحصل أسرتي على راتب تقاعدي لشهيد حرب، وليس تغريمهم ثمن الرصاصات التي يعدموني بها، كجندي فار من الجيش.

لو تعلم كم غبطت حينها، جندياً كان معي، يدعى (سالم)، لمح من بين الناس، شخصاً يعرفه، فناداه وهو يلوح له، قائلاً:(حميد، حميد، بلّغ أهلي بأنهم نقلونا إلى الفاو). مرَّ وقت طويل على ذلك، ولكن صدى كلماته مازال يرن في أذني. فتلك كانت آخر رسالة شفاهية منه لأهله؛ لأن(سالم) لم يسلم، وكان من بين أوائل القتلى.

كنت أتصفح وجوه المارة الذين توقفوا لمشاهدة رتلنا، علّي أحظى بشخص أعرفه، ينقل خبري لأمي وأخواتي؛ ولكن خاب أملي، وأنا أرى وجوهاً ارتسم الأسى عليها؛ لإدراكهم إلى أي

مصير بائس نساق؛ أما الأطفال المدجنون بالأغاني الحربية الحماسية، فكانوا يلوحون إلينا بعلامة النصر.

عصر ذلك اليوم، اقترب الرتل من منطقة الفاو جنوبي البصرة. كانت أصوات المدافع تُسمع بوضوح أكبر، كلما تقدم الرتل أكثر. وكل قذيفة تنفلق؛ كان يتردد صداها في القلوب الواجفة التي أخذت تخفق بحدة، لتضطرب معها المعدة أيضاً؛ فيراود المرء شعورَ من أصيب بالتسمم، غثيان، ورغبة في التقيؤ، وإسهال.

كان يتحتَّم على رتلنا، أن يسلك الطريق المُعَبَّد الذي غمرت جانبيه، المياه الضحلة المالحة، والمرصود من قبل مضادات دروع القوات الإيرانية التي تحصنت بشكل جيد؛ وبهذا أصبحنا صيداً سهلاً لنيرانها.

ومع ذلك، كانت الأوامر تقضي بمواصلة التقدم مهما كلف الأمر؛ ولكن الرتل توقف مرغماً؛ بعد أن دُمرت العديد من ناقلاته، وقتل الآمر، والمساعد، والقسم الأكبر من الضباط والأفراد، وأضحى من تبقى على قيد الحياة منا؛ كالغنم الشاردة من أنياب ذئب كاسر؛ الرصاص كان سيد الموقف، وهو الآمر الناهي. لم يكن أمامنا خيار، سوى الخوض في مياه (المملحة)، ومع عدم وجود فرصة للاختباء، أو الاستلقاء. كان

زملائي الجنود يتساقطون الواحد تلو الآخر من حولي، ولكن الحظ على ما يبدو، لم يتخلَّ عني ذلك اليوم؛ فعلى نحو غير متوقع، تغيَّر اتجاه الرياح، حاملة معها سحب الدخان الكثيف الذي نتج عن احتراق آلاف من أشجار النخيل؛ لتحجب الرؤية؛ وكأن النخيل ـ عماتنا. افتدتنا من الموت. كنت وحيداً في هذه اللجة المرعبة، ولا أعرف ماذا يتوجب عليَّ فعله، ولا سيما بعد أن تفرق الجميع من حولي.

في تلك الأثناء سقطت قذيفة هاون بالقرب مني، يُرَجَح أن تكون القوات العراقية هي من أطلقتها؛ بسب الارتباك والارتجال في قيادة المعركة؛ فأصبت في ظهري وشعرت بحرارة الألم وهي تنهشني؛ رغم البرد الذي جمد أطرافي بسبب ملابسي المبللة؛ ولكني وبطريقة ما، استطعت بلوغ أحد المواضع. حينذاك كان الظلام وصوت أزيز الرصاص وانفلاق القذائف وارتطامها، يحفُّ بالمكان.

كان الموضع صغيراً ومكتظاً بجنود من وحدات شتى، بعضهم جالس والآخر مستلقٍ؛ رجوتهم أن يفسحوا لي مجالاً، لكن لم يكترث لي أحد منهم؛ لأن العديد منهم كان قد فارق الحياة. الجندي الملاصق لي، كان ينزف بغزارة من ساقه المصابة التي كانت بالكاد تتصل بجسده؛ كان شاباً يافعاً،

لربما سيق من مركز التدريب مباشرة إلى هنا. كان يغمغم بسورة الحمد وينطق الشهادتين، ثم شهق وانتفض جسده، قبل أن يهمد للأبد؛ وأقسم بأني شعرت بروحه وهي تفارقه، ولكن لم يكن للعزاء متسع في قلبي؛ فقد كنت أرتجف من شدة البرد كالسعفة في مهب الريح، فقمت بخلع معطفه العسكري المبطن بالفرو الصناعي وقميصه، وارتديتهما بدلاً عن ملابسي المبللة، تاركاً بنطلونه لأنه كان ممزقاً ومنقوعاً بالدم، ولكني حصلت على البنطلون وكذلك الحذاء العسكري من جندي ثانٍ، فارق الحياة جراء إصابته في الرأس.

أمضيت تلك الليلة بين الجثث، أتشهد وأقرأ سوراً من القرآن، متوقعاً أن أجلي سيحين جراء النزف المحتمل الذي تسببت به إصابتي تلك. تخيلت وجه أمي وشقيقاتي المفجوعات بي، وهن يحفَّفن بتابوت خشبي مدثر بعلم العراق، وبداخله سجي جسدي، لكن الأمر لم يحدث؛ لأن الشظية التي أصابتني لم تنفذ إلى داخل جسدي، فكان مجرد جرح سطحي، ولكنه مؤلم، ولحسن حظي فقد أدركت تلك الحقيقة قبل بزوغ الفجر، حينها كانت أصوات نيران الاشتباكات قد فترت، فتسللت إلى بركة المياه المالحة، وخضت فيها، شاقاً طريقي ومتخفياً بين هياكل

الآليات المدمرة التي تتوزع هنا وهناك، وجثث المئات من الجنود وبقايا أشلائهم.

وأخيراً، وبعد أن قطعتُ بضع مئات من الأمتار، عثرت على من تبقى من أفراد وحدتي الذين آثروا البقاء خلف مواضع غير محكمة، هي عبارة عن مرتفعات ترابية، كانت تنتصب عليها رشاشات دوشكا؛ ولم يتخذوا قراراً بالانسحاب، خشية وقوعهم بيد فرق الإعدام التي تتربص بالمنسحبين من المعركة؛ ولكن الفرج أتى مع حلول الصباح، والفرج الذي أقصده ولسخرية القدر؛ كان ثمنه أخوة لنا، أكلنا وشربنا معاً. إذ كانت الخسائر بالأفراد والمعدات كبيرة بشكل مهول؛ بحيث تقرر سحب الوحدة، لإعادة هيكلتها).

لربما نجا والدي من تلك التجربة المريرة، وما تلتها من معارك أخرى شارك فيها؛ ولكنها خَلَّفَتْ بداخله رهاب الموت قتلاً. ولكي يتغلب على ذلك الرهاب؛ لجأ إلى التدخين ومعاقرة الخمر ولازمته تلك الخصلة، إلى آخر يوم من عمره. وكلما ازدادت مآسيه وأثقلته الحياة بهمومها، كلما ازدادت جرع شرابه.

-٣-

برحيل والدي فقط؛ أدركت المعنى الحقيقي للشعور بالوحدة، على الرغم من أني لم أكن أجتمع به إلا لماماً.

بدأت أفتقده، وأفتقد تلك الأصوات التي كانت تصدر عنه، كصوت وقع قدميه على البلاط، أو نوبات السعال التي تنتابه، أو الصرير الذي يخلفه إغلاق باب. تلك الأصوات اللجوجة التي كانت تتناهى إليَّ، بلا أدنى اكتراث أو مبالاة مني، حالها حال أصوات الباعة المتجولين، التي كنت أعتبرها أحياناً مدعاة للإزعاج؛ أدركت الآن فقط، أنها كانت رسائل تنبض بالحياة، وتذكرني بأني لست وحيداً.

كنت في العادة أذهب لإيقاظه بعد أن أنهي صلاة الفجر، مكرراً ندائي له عدة مرات بصوت خفيض، متجنباً لمسه بيدي؛ لأنه في تلك الحالة يفز مذعوراً، وتلك الحالة هي من مخلفات تجربته المريرة في الحرب. وبينما أعود لمواصلة نومي؛ يكون هو قد تناول فطوره وغادر ليكسب رزقه، تاركاً لي بعض النقود. وعندما يؤوب في المساء، كان يتسلل بهدوء إلى غرفته ليتجنب لومي له، وكأني أنا الأب وليس هو؛ بسبب الخمر الذي أعارض أن يجلبه معه، فيأوي إلى غرفته ومعه كل

أسباب الولوج إلى عالمه الافتراضي (الخمر والثلج والمقبلات وصوت ياس خضر، وصور أمي وفاتن وعلي).
الشيء الوحيد الذي كان يرغمه على الخروج من تلك المقبرة التي يدفن نفسه فيها، هو قضاء حاجته.
حاولت جاهداً إقناعه بالإقلاع عن شرب الخمر، لكنه رفض بتعنت، قائلاً:

- هل تظنني أرتكب فعلاً محرماً، لأني أشرب الخمر؟
- لست أظن، بل أنا متيقن.
- اذهب وسل أي مرجع دين، وقل له: (إن كانت حياة شخص ما، تتوقف على شرب الخمر! فهل يجوز له شربه؟)، وانتظر ماذا سيكون رده لك.
- ولكنك لن تموت إذا ما تركت الشرب!
- من يقول ذلك؟
- أنا!
- وهل أنت طبيب!؟ وحتى الطبيب لا يُشخِّص المرض، إلا بعد أن يسأل المريض عما يؤلمه! وأنا أعلم الناس بمرضي، أنا لا أشرب لأجل المتعة، بل لعلاج روحي.
- والغناء، هل هو علاج أيضاً؟

- وهل ياس خضر يغني؟ أتحدى أي شخص يستطيع أن يرقص أو يصفق أو ينتشي من الفرح، عندما يستمع إلى أغاني ياس خضر، إنها تبكي النفس، على خلاف العديد من الأغاني الدينية التي تؤدّى اليوم، ويرقص الشباب على أنغامها.

كانت جروحه أقوى من أن يتحملها دون تناول مسكن للآلام، وكنت أحس بوطأتها عليه؛ لأني عانيت منها أيضاً، وإن كانت لا ترقى إلى تلك التي يشعر بها هو؛ فأنا على الأقل مازالت آفاق الحياة مفتوحة أمامي؛ أما هو فكان متيقناً أن فيما تبقى من حياته، لن يحرز سوى هزائم أخرى، وكنت أنا المرشح الأول على قائمة هزائمه تلك، لأني سلكت طريقاً تحف به المخاطر، طريق العين بالعين، والسن بالسن، لأسَكِّن بها آلامي.

كان مقتنعاً بقوة حجته، بل العكس، أخذ يفرط في الشرب، رغم أن الحصول عليه، أصبح نادراً، وبالتالي أغلى ثمناً؛ وهو مما لا يتناسب مع دخلنا المحدود.

في اليوم التالي لمغادرة عمتي، وبعد أن أنهيت صلاتي، توجهت بصورة عفوية إلى غرفته لأوقظه؛ وعندما فتحت الباب وأدركت ما الذي أفعله، بكيت بحرقة ولوعة. ولم يكن بكائي

لأجله هو فقط، بل من أجل بقية أفراد أسرتي وأحبتي الذين أفِلَتْ نجومهم قسراً، ومن أجل نفسي أيضاً.

خلال النهار يحزنني الشعور بالوحدة، والنظر خلال ضباب قادم الأيام، ويغلب على تفكيري هاجس غريب من أني التالي على قائمة القتل الطويلة؛ ولكن ما إن يحل الليل؛ حتى يغشاني الحزن بشكل أكبر، فأتقلب متوجعاً باحثاً عن هجوع يداوي ألمي ويغسل جروحي التي تنز خسارات وخيبات، فتلاحقني أطياف أبي وأمي وشقيقتي وشقيقي وأقربائي وأصدقائي الذين اخترمهم التقتيل عن عالمي؛ وتطاردني أطياف ضحاياي الذين سَفكتُ دماءهم وأزهقتُ أرواحهم في الماضي.

اختفى عن عالمنا هذا، الضحايا والشهود على حد سواء؛ بيد أن الضمير ينصبهم شهوداً عندما يتولى زمام المحاكمة.

ضحاياي بلغوا من الكثرة لدرجة أني تخليت عن مواصلة عدهم؛ (خمسون، ستون، مائة، أكثر؟) لا يمكنني الجزم بشكل قطعي، بعضهم ما زالت ملامحهم وأسماؤهم وألوان ملابسهم، عالقة على جدران ذاكرتي، وآخرون أضحوا مجرد أفواه وأيادٍ هلامية تدينني وتتوعدني بالقصاص.

أسأل نفسي أحياناً: (لماذا نرغب بإقصاء بعضنا بعضاً عن هذا العالم، ونحن مغادروه لا محالة؟ هل نحن من يقرر من الذي يستحق ومن لا يستحق، مزاحمتنا على هذا الكوكب الكبير؟ هل تتوارث جيناتنا الرغبة في القتل منذ عهد قابيل وهابيل؟).

لم أخرج من المنزل طيلة يومين كاملين، وذلك لاستقبال أي معزٍ مفترض؛ لكن ما من أحد أتى لزيارتي، سوى عمتي وخالي اللذين جلبا لي الطعام؛ وبقي التلفاز نافذتي الوحيدة التي أطل منها على العالم، وتابعت عبره أخبار حُمّى هجرة اللاجئين السوريين والعراقيين إلى أوروبا، وغرق بعضهم في البحر أثناء محاولتهم الوصول إلى اليونان.

كان لي فيما مضى العديد من الأصدقاء، ولكن معظمهم فارقني؛ بعضهم بسبب الطائفية العمياء، وبعضهم الآخر غيَّبهم الموت، بسبب الطائفية أيضاً؛ الصديق الوحيد المتبقي لي كان (سلام) الذي تربطني به علاقة وثيقة منذ أيام الكلية، وقد أثار استغرابي عدم مجيئه لتقديم العزاء لي، كما ينبغي لصديق أن يفعل.

أخيراً سئمت من مكوثي وحيداً في المنزل؛ فقررت الخروج. ركنت سيارتي قريباً من ساحة بيروت في شارع فلسطين وتابعت التجوال مشياً.

كانت الحياة تنبض بالأضواء وبحركة المارة والبائعين في المتاجر، وآخرين عرضوا بضاعتهم بشكل أنيق على الأرض، الصينيون والأتراك جديد، يغزون بغداد هذه المرة؛ ولكن ببضائعهم وليس بجيوشهم.

فتيات بسراويل وقمصان ضيقة، بعضهن يغطين شعرهن بـ (حجاب)؛ شباب بسراويل ضيقة وقصيرة وقصات شعر غريبة؛ وآخرون يقودون سياراتهم الرياضية الفارهة، على الشارع الخدمي، والتي تصدح من مسجلاتها موسيقى صاخبة.

لم أصادف أناساً يعرفوني أو أعرفهم، سوى بضعة وجوه مألوفة لدي، مع أن منزلي لا يبعد سوى بضعة مئات من الأمتار؛ مزود خدمة الإنترنيت الذي أقصده كل شهر لتجديد الاشتراك، سألني عن اسمي ليجدد الاشتراك، أما نادل المطعم الذي تناولت عشائي فيه، والذي عاملني بحفاوة وبوجه بشوش، فعلى الأرجح فعل ذلك؛ لأني زبون كثير التردد على ذلك المطعم، ومن المؤكد أنه يفعل ذات الشيء مع الجميع. هل أتوقع منه أن يحفل لارتدائي قميصاً أسودَ ويواسيني بوفاة والدي؟

قبل عودتي إلى المنزل، توقفت عند متجر لشراء بعض الطعام. (بيض، جبن، حليب، خبز فرنسي، عصائر، ألواح الشكولاتة)؛ أشياء يمكنني تناولها مباشرة دون الحاجة لطهوها، فيما خلا البيض الذي بدوره لا يتطلب مني وقتاً أو جهداً كبيراً لإعداده، رغم أني أجيد الطبخ.

خرجت من المتجر، وركبت سيارتي التي ركنتها بالقرب من مدخله. كنت قد قطعت بضعة أمتار، عندما أشرَّت لي إحدى الفتيات لأقلها إلى منزلها، ترددت في بادئ الأمر؛ لكن جمالها كان آسراً، وتذكرت نصيحة عمتي لي بالبحث عن زوجة، فقلت لنفسي: (لم لا؟!). كانت في مقتبل العمر، محجبة ومحتشمة الملبس، وهو ما يروقني في الفتاة التي سأرتبط بها، فوافقت ولا سيما عندما علمت أن المكان الذي تروم الذهاب إليه، لا يبعد كثيراً عن منزلي؛ ولكن خيبة الأمل كانت تنتظرني مباشرةً عند باب منزلها، إذ أقبل نحوها طفل في الخامسة من العمر وهو يناديها بكلمة ماما.

نقدتني خمسة آلاف دينار؛ كان مبلغاً جيداً قياساً للمسافة القصيرة التي قطعتها، لكنها لم تُدخِل البهجة إلى نفسي؛ لا لأني اكتشفت أن الفتاة كانت متزوجة، بل لأني انزعجت لاضطراري لحمل بضاعتها ووضعها داخل صندوق السيارة،

وإفراغها ثانية عندما وصلنا إلى منزلها؛ فإن كنت سائق سيارة أجرة، فذلك يعني تقبلك لأن تكون حمالاً في بعض الأحيان، وهذا لم يكن يعجبني، ولا يناسبني إطلاقاً. فكيف لخريج كلية العلوم ـ قسم الكيمياء ـ أن يصبح حمالاً؟ لذا أقصيت بشكل نهائي خيار العمل سائق سيارة أجرة، وبقي خيار بيع البيت قائماً؛ أما الزواج فهو على أية حال، ليس أمراً اختيارياً، بل هو شر لا بد منه، كما يقال.

ولكن من الفتاة التي تليق لتكون شريكة حياتي؟ بنات عمتي الكبرى (كواكب) جميعهن متزوجات؛ عمتي (يسرى)، ذريتها من الذكور فقط؛ عمتي (كوثر) بنتها مازالت صغيرة. عمتي (بشرى) لديها بنت تماثلني في السن؛ ولكن لا تمتلك نصيباً من الجمال، رغم كل عمليات التجميل التي خضعت لها، والتي حولتها إلى نسخة غير متقنة، لفنانة مشهورة؛ لكن عائلة عمتي (بشرى) ميسورة الحال، لذا فهي لا تفَوتُ فرصة الحضور إلى أي مناسبة بكامل زينتها وحليِّها الذهبية؛ فمن الشائع أن تعقد صفقات الخطوبة في مثل هكذا مناسبة.

كنت أحس بمطاردتها لي، وتعمدها الاصطدام بجسدي عدة مرات، بحجة الزحام، أما عندما تتحدث معي، فكانت تقترب مني لدرجة أني أشعر بحرارة أنفاسها تداهم وجهي، وكنت

أتجنبها طيلة فترة العزاء؛ ولكني كنت أدعوها بصيغة أختي، لأقطع عليها طريق أمانيها، لأني وبكل بساطة، كنت أتوق للارتباط بفتاة جميلة.

الفتاة الوحيدة التي تناسبني من بنات عماتي، هي (هديل)، ابنة عمتي (ذكرى)، فهي جميلة ومتدينة، وهذا ما كنت أبحث عنه في الفتاة التي أود الارتباط بها؛ ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل أناسبها أنا؟ لأنها طبيبة، ولن تقبل حتماً، الزواج مني أو من غيري في الوقت الحالي؛ بسبب انهماكها بدراسة البورد. ولا أظنها ستوافق على الزواج مني في أي وقت لاحق، لأن الطبيبات، سقف مطالبهن عالٍ جداً، فلا يكون كفؤها سوى طبيب أو مهندس.

ولكن جمال الفتاة وحده، لم يكن على الإطلاق المعيار الوحيد الذي يُرضي رغباتي، بل كنت أريدها فتاة نقية السريرة وخالصة لي؛ فـ(ليديا) و(ريم)، الفتاتان اللتان دخلتا حياتي فيما مضى، كانتا جميلتين ومهذبتين، ومما لا شك فيه أن جمالهما يغري أي شخص مغفل؛ يتقدم إليهما دون أن يتحقق من أن ثمة شخص ما، قد ولجهما من قبل، سواء أكان ذلك الولوج من الباب الأمامي، أو من الباب الخلفي.

أشَبِّهُ الأمر بلعبة الشطرنج التي يجتهد فيها اللاعب للنيل من أحجار الخصم، وفي ذات الوقت يجتهد للمحافظة على أحجاره، لن أرتضي لنفسي أبداً، أن أكون من ذلك الصنف من الرجال الذين يرتبطون بفتيات، سبق وأن عبثت بهن أيادٍ أخرى؛ ولكن أنّى لي الاطلاع على سرائر الخلق وخفايا الأمور؟ فهذا الشيء من اختصاص الخالق وحده؛ باستثناء الإنسانة الوحيدة في الكون كله، التي أعرف وبثقة عالية مكنوناتها، وهي (ديما)، (الله وهي وأنا) حصراً المطَّلِعون! يا لتلك المفكرة الحمراء التي فككت لي شفرة الولوج إلى عالم (ديما)! أنّى لي أن أحرز مفكرة مماثلة عن الفتاة التي سأرتبط بها؟

فتحت صفحتي على الفيس بوك، كانت هنالك العديد من كلمات العزاء بفقد والدي والتي علق عليها أصدقائي من (العالم الأزرق)، بعد أن نشرت خبر وفاته يوم مقتله؛ وهنالك

اتصالات وردتني من سلام، عبر (الواتساب) لم أردَّ عليها. وثمة رسالة منه أيضاً، عبارة عن بطاقة مصورة لسورة الفاتحة؛ مما يدل على أنه يعلم بموت والدي؛ لذا اتصلت به، وفي نفسي عتب شديد عليه:

- السلام عليكم (سلوم).
- هلو حبيبي (حسون)، وعليكم السلام. والله العظيم لقد تألمت كثيراً عندما سمعت الخبر. على العموم، البقية في حياتك وأسأل الله أن يلهمك الصبر والسلوان.
- أشكرك أخي (سلوم) ولكني عاتب عليك؛ لأنك لم تحضر عزاء والدي.
- ماذا تقول يا رجل؟!
- أوليس من المفترض أن أعتب عليك، وأنت صديقي المقرب؟
- بلى، ولكني أكلمك الآن من ألمانيا التي وصلتها يوم أمس!
- ألمانيا!
- نعم ألمانيا. اتصلت بك لأخبرك أني على وشك السفر؛ لكنك لم ترد، لربما تصادف ذلك مع حادث المرحوم والدك.

- ولكن لِماذا لَمْ تخبرني قبل ذلك بأنك عازم على الهجرة؟
- حدث كل شيء بسرعة، كانت فكرة ابن عمي، عرضها على قبل رحيلي بيوم واحد، واقتنعت بها، وفي ذات اليوم حجزنا تذكرتي الطائرة إلى إسطنبول، وفي اليوم التالي كنا هناك.
- هل كان السفر يسيراً؟
- سأصْدِقُك القول، مررنا بلحظات صعبة، ولكن مع إرادة قوية وبذل للأموال، قيض لي بلوغ غايتي.
- وكم كلفتك الرحلة؟
- بحدود خمسة آلاف يورو؛ هذا لأننا لم نمتلك المعلومات الكافية، ولكن إن عزمت على السفر، فسأعطيك الإرشادات اللازمة لتكون سفرتك أقل تكلفة، وأقل عناءً.

بعد تلك المكالمة، اجتذبتني على نحو مغرٍ، فكرة السفر إلى ذلك العالم المتوهج الذي رغب والدي من قبل الانتساب إليه.

فما الذي يجذبني للبقاء في وطن أدمن الحروب ورائحة الدم والبارود والبغضاء!؟ ما الذي جنيته غير ضمير مثقل بسفك أرواح بريئة عديدة!؟ بلا أدنى إشراقة أمل تلوح في أفق حياتي،

أو حتى مجرد الحصول على وظيفة، بينما حصد السياسيون من الفريقين ثمار صراعنا واقتتالنا.

ذات مرة، قرأت مقولة للمفكر والفيلسوف البريطاني (برتراند راسل) :(أنا لا أضحي بحياتي في سبيل مبادئي، فقد أكون على خطأ). لربما توحي تلك العبارة لأول وهلة، أن معتنقها شخص انتهازي، أو أنه لم يكن يؤمن أصلاً بتلك المبادئ. فكم رجل سيق إلى الموت بسبب مبادئه! وكان مجرد التفوه بإعلان التوبة، كفيل بإنقاذ حياته؛ ولكني وبعد تجربتي المريرة، أضحيت أشاطره الرأي.

ذِكْرُ ألمانيا له وقع ساحر على قلبي، ألمانيا، حلم والدي من قبل، الذي فشل في تحقيقه، رغم بذله الكثير من المال.

– ٤ –

الأجداث تكتظ بفلذات الأكباد، والسماء تضج بتأوهات الثكالى والمفجوعين؛ ولكن لا تلوح في الأفق نهاية لهذا الليل البهيم، ولا عزاء للأحياء، فقدرهم هو أن يعيشوا كالأموات في هذا الوطن.

كان عام ١٩٩٦ شديد الوطأة على العراقيين. فقد جردهم الحصار الاقتصادي، من جميع مدخراتهم وأوصلهم إلى عتبة الفقر. ضاقت السبل بوالدي، وكان ما يجنيه من سيارته خلال يوم كامل، لا يكاد يكفي لإطعامنا، أما عندما نحتاج لشراء أمور أخرى، من ملابس أو إجراء صيانة للسيارة، أو استبدال إطاراتها؛ فقد كنا نتخلى عن قطعة من أجهزة البيت أو أثاثه، رغم ما عُرِفَتْ عنه والدتي من تدبير.

كان السفر إلى الخارج والعمل هناك، هو النافذة الوحيدة المتاحة لجني المال والعيش على نحو مريح؛ ولكن ليس من دون دفع ثمن باهض لدائرة الجوازات، ناهيك عما يسببه الافتراق عن الأسرة من معاناة.

باع والدي سيارته، وسافر إلى الأردن التي كانت فيها الأجور مرتفعة، مقارنة مع العراق؛ ولكنه تعرض عدة مرات للنصب من قبل ضعاف النفوس؛ فذات مرة عمل في البناء

لأسبوع كامل، وفي الآخر قالوا له بكل بساطة :(الله يعطيك)؛ ولأن القانون في الأردن لا يسمح للعراقيين بالعمل، بل وتطاردهم الشرطة إن هم فعلوا ذلك؛ فلم يكن بوسع الكثيرين الاحتجاج على مصادرة جهودهم، غير السكوت واجتراح المرارة.

كانت الأجور في لبنان أعلى مما هي عليه في الأردن؛ ولكن المشكلة هي صعوبة استحصال سمة دخول للعراقيين، حالها حال العديد من الدول التي ترفض استقبالهم؛ ولكن ما زال بوسع والدي عبور الحدود اللبنانية، بشكل غير رسمي.

سافر أولاً إلى سوريا، ودفع خمسين دولاراً لضابط سوري من قوات الردع التي كان مقرها في لبنان، مقابل نقله مع ثلاثة عراقيين آخرين بسيارته العسكرية مرتدين زياً عسكرياً واجتازوا الحدود بسلاسة.

عمل والدي بائعاً متجولاً للشاي والقهوة، وكان يجني الكثير من المال من وراء ذلك؛ لكن المشكلة كانت تكمن في الشرطة اللبنانية التي تعاملت بحزم مع المهاجرين غير الشرعيين. فآثر في نهاية المطاف الاستقرار في سوريا، وإن كانت الأجور فيها أقل.

استأجر والدي محلاً في منطقة (السيدة زينب) لبيع أرصدة وشرائح الهاتف النقال وقطع الزينة لها؛ وكان العمل يدر عليه ربحاً لا بأس به، ووجد أن تكلفة زيارته لنا مرة واحدة في العام ولفترة محدودة، أكبر بكثير من تكلفة التحاقنا للإقامة معه؛ وهكذا غادرت، أنا ووالدتي إلى سوريا. وكان ذلك في نهاية عام ١٩٩٨.

أقمنا في عمارة سكنية من سبعة طوابق في حي (جرمانا) ذي الغالبية المسيحية، وعشنا حياة هانئة لا يعكر صفوها شيء، وأمضيت أجمل سني طفولتي ومراهقتي هناك، وأصبحت أجيد اللهجة السورية بطلاقة، حتى أن والديَّ كانا ينتهراني، عندما أتحدث بها معهما.

وبعد عامين، أي مع مطلع الألفية الثالثة، أقبلتْ إلى الدنيا شقيقتي (فاتن)، كانت طفلة فائقة الجمال، بعينين فيروزيتين أورثتهما لها جدتي لوالدي، وبخدين متوردين؛ كنت سعيداً لأني أخيراً، وبعد اثنتي عشرة سنة، حظيت بشقيقة؛ لكن الحدث الأسعد في حياتي وقع عندما بلغتُ الخامسة عشرة من العمر، فحينذاك خفق قلبي بالحب لأول مرة؛ (ليديا)، جارتنا المسيحية التي تسكن في الدور الأسفل منا، هي من سرقت قلبي، قطع كلانا منذ ما يقارب العام، تذكرة على قطار المراهقة؛ وبينما

خلَّفت المراهقة أثرها على أنفي الذي تضخم بشكل ملحوظ، وعلى صوتي الذي اخشوشن؛ فإن أثرها على (ليديا) بالمقام الأول، بانَ على نهديها اللذين أصبحا منتصبين بثقة بالغة، قياساً إلى عمرها، فكانت يميني التي لم تنتهك لحما من قبل، غير لحمي، تتنقل بين منحدراتها الطرية البضة تلك.

ولكن هدية السماء الكبرى المتمثلة بعثوري على حواء خاصة بي، لم تكن مقتصرة على ذلك، أو على تبادل بعض القبل السريعة، بل تخطّته بكثير؛ فلا يتطلب الأمر سوى مغادرة والديها للعمل، لتغدو الشقة فردوسنا المنشود. كنا نمارس طقوس الحب بحرية كبيرة، كأي راشدين أو زوجين.

مع حوائي شعرت بأبواب النعيم تفتح، لأطوف في فضاءاته البهيجة.

ما زلت أتذكر أول فرصة سنحت لي للاختلاء بها، وكيف تملّكني الرعب عندما أخبرتني بأني أستطيع أن أتعامل معها كما ينبغي لأي رجل أن يتعامل مع زوجته؛ ففكرة افتضاض غشاء البكارة عندنا في العراق، كانت ترعب الفتيات والفتيان على حد سواء؛ لذا يضطرون إلى الولوج من الباب الخلفي في الغالب؛ لكنها هدَّأت من روعي، وأخبرتني بأنها فقدت بكارتها

منذ عام خلا، مع صديقها السابق (داني) الذي تركته؛ لأنها اكتشفت خيانته لها، مع قاطنة أخرى في بنايتنا.

سألتها مذهولاً:

- ألا يشترط الرجال عندكم أن تكون الفتاة باكراً عند الزواج؟
- بلى يشترطون.
- فكيف ستتدبرين الأمر عندما تتزوجين؟
- في (باب توما) توجد الكثير من العيادات التي تتخصص بإعادة غشاء البكارة. ندعوها بـ(التسكيرة)، هذا الأمر شائع.
- أليس في ذلك خداع للشخص الذي سترتبطين به لاحقا؟
- بلى، ولكن الشباب مخادعون كذلك، فجميعهم يرتضون لأنفسهم ممارسة الجنس مع الفتيات؛ لكنهم يمنون أنفسهم بالارتباط بزوجة لم تمسسها يد؛ فمن برأيك أكثر مخادعة؟

بقيت مذهولاً، فاجتذبتني نحوها وهي تقول:

- (لسه بكير على التسكيرة)، وإلى ذلك الحين لنستمتع بأكبر قدر ممكن من حياتنا.

كنت قلقاً حيال موضوع الحمل، وكيفية تفاديه، فأخبرتني بأنها تستخدم حبوب منع الحمل، وإنه يتوجب عليَّ المساهمة في توفيرها لها، وكان ذلك يسيرا عليَّ لأني أستطيع الوصول إلى دخل والدي.

لم نهدر أدنى فرصة تتاح لنا، فقد كنا كالنار المتأججة، كلما ألقي إليها الحطب؛ ازداد لهيبها؛ علاقتنا لم تتخطَّ حدود جسدينا وشقتها؛ لكنها اشترطت على الوفاء لها، وعدم الإقدام على خيانتها مع فتاة أخرى، مثلما فعل (داني)، ووعدتني بأنها ستتصرف بذات الشيء حيالي، وهو ما التزمنا به فعلاً.

تزامنت علاقتي بـ(ليديا) مع غزو العراق عام ٢٠٠٣. وبعد أشهر، تواترت الأخبار المُطَمْئِنة؛ فقد استقر الوضع في العراق، وارتفع معدل دخل الفرد الذي بدأ ينفض عن نفسه غبار الحرمان والعوز والجوع؛ حينذاك رغبت والدتي بالعودة إلى بغداد؛ لكن والدي كانت له نظرة ثاقبة، فقال لها:

- إنها ليست سوى البداية، انتظري قليلاً وسترين كيف سيتحول العراق إلى مسرح لتصفية الحسابات الدولية، ولن ينعم شعبه بالراحة.
- وهل ترغب في تمضية ما تبقى من عمرنا، هنا؟
- لدي خططي التي سأفاجئك بها عما قريب.

لم يفصح والدي عن خططه؛ ولكني كنت مؤيداً له بعدم رجوعنا إلى العراق، لأني لم أشأ التفريط بـ (ليديا)، تلك النعمة التي هبطت عليَّ من السماء.

وذات يوم من صيف عام ٢٠٠٤، عاد والدي إلى البيت جذلاً، وقال لوالدتي وهو يلوِّحُ لها بمغلف ورقي:

- هذا ما وعدتك به منذ زمن!

أخرج من داخل المغلف أربعة جوازات سفر ألمانية مزورة بإتقان شديد، وأربع تذاكر سفر إلى ميونخ، والتي أنفق معظم مدخراته للسنين الفائتة، للحصول عليها.

كان أمامنا أسبوعان حتى يحين موعد سفرنا، وكان والدي منتشياً بالسعادة، أما أنا فتملكني شعور بالغم الشديد؛ لأني كنت أود أن أمضي حياتي هنا في دمشق، فقد كان لي أصدقائي ومدرستي وذكرياتي، والأهم من ذلك كله، كانت لدي (ليديا) التي أطفئ عند شواطئها حممي الملتهبة؛ أما والدتي فلا هذا ولا ذاك، فقد كانت تشعر بتقلصات في بطنها؛ لأنها كانت حاملاً بشقيقي (علي).

باع والدي مقتنيات المحل وأثاث منزلنا، لصديقه (محمد الأعظمي) الذي سيشغل شقتنا بعد رحيلنا، مع أسرته التي ستوافيه لاحقاً قادمة من بغداد.

في اليوم السابق لسفرنا، ذهبت لأودع (ليديا)؛ وكان الحزن يعتصر روحينا؛ لكني كنت على يقين من أنها ستتعافى بسرعة بعد أن تجد لها حبيباً بديلاً عني دونما عناء؛ فهي جميلة وفي ريعان الصبا، ثم أنها لا تبخل بمنح ما يتوق له الشبان؛ أما أنا، فلم أكن واثقاً من أن الشقراوات الألمانيات سيتقبلنني بتلك السهولة؛ فهنالك حواجز ثقافية واجتماعية ودينية، ولعل اللغة، ستكون أكبر تلك الحواجز.

الحاجز بيني وبين (ليديا) قائم كذلك، فهي في نهاية المطاف مسيحية وأنا مسلم؛ وهذا الفارق وحده كافٍ ليضع حداً لعلاقتنا في يوم ما؛ ستكون الممانعة على الأرجح من طرف عائلتي، أما من طرف عائلتها، فالمسيحيون هنا أقل تشدداً فيما يتعلق بالزيجات المختلطة؛ ولكن كان هنالك حاجز آخر رسخ في داخلي، فخياراتي المتعلقة بالفتاة التي سأتزوجها في يوم ما، كانت تقع ضمن صنف آخر؛ أقصد بذلك، فتاة لم تعبث بها يد أخرى، أو حتى ارتعش قلبها لشخص غيري.

في ساعة مبكرة من فجر اليوم المحدد للسفر، اتصلت بي (ليديا) عن طريق الهاتف النقال، وأخبرتني أنها تريد توديعي لآخر مرة، وأنها ستقابلني عند سطح العمارة، كان ذلك أشبه

بالوقت بدل الضائع في مباراة كرة القدم، وكلانا رغب في فرصة أخيرة لتسديد هدف.

صعدت إلى السطح، ووجدتها قد سبقتني؛ قادتني إلى فسحة محصورة بين خزان الماء والحائط؛ وفرَّت لنا خلوة لا بأس بها؛ كانت (ليديا) تذرف الدمع بصمت، ثم خلعت صليبها الذهبي وسلسلته، وأهدتني إياهما للذكرى؛ كانت هدية ثمينة وفكرت في أن أبادلها بشيء ثمين كذلك، فلم أجد غير نقالي الحديث، فأهديته لها.

توجهنا إلى مطار دمشق الدولي، ومشينا عبر الممر المؤدي إلى الطائرة، وجلسنا على مقاعدنا المحددة. وجرى كل شيء بسلاسة ويسر.

كانت جوازاتنا لعائلة ألمانية من أصول تركية ليتلاءم مع هيأتنا؛ ولكن ما لم يكن في الحسبان، هو تلك المضيفة الشقراء ذات الابتسامة الرقيقة التي لا تفارق وجهها الجميل، والتي لاحظت حمل والدتي، فتوقفت عندها وانحنت تكلمها بالألمانية؛ لا أعلم ماذا سألتها، لكن والدتي التي لم تفقه منها أي كلمة، ارتبكت بشكل ملحوظ وهي تبتسم ابتسامة بلهاء، والتفتت إلى والدي مستجيرة، وهو الآخر لم يستطع التفوه إلا ببضع كلمات

إنكليزية غير مترابطة؛ مما أثار الريبة لدى المضيفة التي استدعت على إثرها أمن المطار، ليفتضح أمرنا.

اعْتُقِلَ والديَّ وأودعا السجن بشكل منفصل؛ أمي في سجن(دوما) للنساء، وأبي في سجن (عدرا) للرجال؛ أما أنا وشقيقتي فقد أخلي سبيلنا في اليوم التالي، لكوننا قاصرين، وعند ذاك طلب مني والدي أن نلتجئ إلى (محمد الأعظمي) الذي شغل وحده شقتنا في (جرمانا)، إذ يتطلب التحاق أسرته به، مرور وقت طويل، وأن نتصل بخالي (علي) وعمتي (كوثر) في العراق، ونبلغهما بما حل بنا.

ولحسن الحظ أعادت لي (ليديا) نقالي المحفوظة فيه، أرقام خالي وعمتي، والذي نجا من مصادرة الشرطة، على خلاف نقال أبي وأمي.

بعد يومين، وصل خالي ليتابع محنتنا؛ في ظرف مماثل لمسألة والديَّ، فإن إطلاق سراحهما يقتضي ثلاثة أشهر من الإجراءات على أقل تقدير؛ ولأن والدتي لا يمكنها بأي حال من الأحوال أن تلبث في السجن مثل تلك المدة بسبب حملها؛ لذا جربنا كل السبل في محاولة تقليص فترة الحجز، ولكننا لم نفلح في سعينا.

كنت خلال تلك الفترة أشعر بالتعاسة والضياع، لكني وجدت بعض العزاء بين أحضان (ليديا).

وأخيراً اهتدينا لطريقة تحقق لنا ما نصبوا إليه، بفضل والد (ليديا) الذي نصحنا بتوكيل محامٍ يعرفه من أسرة متنفذة في الحكومة السورية، ولهم تأثير كبير؛ ولكن يتطلب منا بذل الكثير من المال للمحامي وللرِشى التي لا يسير الحال بدونها. وهذا ما حصل فعلاً. فبعد ثلاثة أسابيع أفرج عنهما مع قرار بالترحيل عن سوريا؛ وبذلك يكون حلم والدي للعيش في ألمانيا قد تقوض، ومعه تقوض حلمي في البقاء في سوريا. أما والدتي فهي الوحيدة التي تحققت رغبتها في العودة إلى العراق. ولكن الصدمة التي قصمت ظهر والدي حدثت عندما انتهبوا جميع الأموال التي كانت بحوزته، وكانت بحدود أربعة آلاف دولار أمريكي؛ وكذلك هاتفي والديَّ؛ وهكذا ضاعت منه مدخرات وجهد ثماني سنوات.

رُحِّلَ والدايَّ بسيارة بوكس تابعة لدائرة الهجرة، بينما استأجر خالي لنا، سيارة أجرة نوع شيفروليه/ كابرس من مكتب للنقليات والسفر في شارع العراقيين عند حي (السيدة زينب)، وتبعناهما.

بعد اجتيازنا الحدود، انضم والديَّ إلينا وتابعنا جميعا السير نحو بغداد بسيارة الأجرة تلك؛ كان والدي واجماً، وشارد الذهن

طول الطريق وبالكاد نطق كلمة، أما والدتي فكانت تشعر بألم في بطنها المنتفخة، كلما اهتزت السيارة بشكل مفاجئ جراء حفرة أو مطب صناعي؛ أما أنا فكان الحزن والكمد ينهشان قلبي، كلما تحسست أصابعي السلسلة والصليب، هدية (ليديا) لي.

عدنا إلى منزلنا الذي كانت تشغله عمتي (كوثر) طيلة الستة أعوام الماضية، لقاء إيجار مخفض، احتفظت به أمانة عندها؛ وبعد احتساب أجور المحامي والنقل والرشى، تبقى لوالدي في ذمتها، مبلغ ثلاثة آلاف وخمسمائة دولار، اشترى بها سيارة أجرة طراز أوبل ١ ١٩٩٣. وتابع العمل عليها لغاية يوم مقتله.

بعد فترة قصيرة من عودتنا، أنجبت والدتي، شقيقي. وأسمته (عليّ)، على اسم خالي؛ كان صغير الحجم لدرجة لا تعقل، لأنه ولد قبل أوانه، فضلاً عن سوء التغذية الذي عانت منه والدتي أثناء فترة اعتقالها.

بقيت أسرة عمتي(كوثر) وخالي(علي) تشاركنا السكن لشهرين آخرين، بعدها اشتروا بيتاً صغيراً في حي (جميلة) وانتقلوا إليه؛ وكان لوجودهم معنا، وكذلك مَقْدَمُ شقيقي (عليّ)، كبير الأثر لإخراج والدي من دائرة الكآبة والحزن التي خلفتها تلك التجربة المريرة.

أما أنا فتوجب عليَّ التأقلم مع محيطي القديم ـ الجديد ـ ثانية.

–٥–

بغداد بدَّلت وجهها، بغير ذاك الذي كان قبل رحيلنا إلى سوريا؛ الجدران الخرسانية وحواجز الشرطة، تقطع أوصالها، كأضحية عيد؛ السيارات تضاعفت أعدادها وأنواعها، الهواتف النقالة والأطباق اللاقطة للبث الفضائي وسلع استهلاكية عديدة غزت السوق، وتحولت البيوت على امتداد شارعنا إلى عمارات تجارية من ثلاثة طوابق أو أربعة.

كان بيت جدي الاستثناء الوحيد في شارعنا الذي لم يتمدد طولياً ويتحول إلى عمارة، بل انشطر أفقياً.

الشطر الآخر من منزل جدي اشتراه رجل تكريتي على مبلغ عالٍ من الخلق الحميد، كان يعمل في القصور الرئاسية، يدعى (أبو عمر)؛ (حدث البيع قبل أن أولد ببضعة أشهر). حينذاك لم يكن لديه من الأبناء غير (عمر) الذي يكبرني بعام واحد، أما ابنه الآخر (محمد)، واخته التوأم (ريم)، فقد ولدا في زمن مقارب لمولدي، تحديداً شهر ونصف بعد مجيئي إلى الدنيا.

بدا الأشقاء الثلاثة، لفرط جمالهم؛ وكأنهم من عالم غير عالمنا، بشعر أشقر وخدود زهرية وعيون ملونة؛ لكن ترف

العيش وفرط الدلال، تركا بصمتهما عليهم، فبينما غادر الفتاة، حياء الإناث، فإن شيئاً من الميوعة بدا واضحاً في سلوك الولدين.

نشأنا معاً، وارتدنا ذات المدرسة الابتدائية، وربطتنا أواصر كانت أكبر من مجرد صداقة؛ فقد كنا نمضي جل الوقت معاً، وكان (أبو عمر) يسمينا ـ نحن الاربعة ـ الفرسان الثلاثة، تمثلا بعنوان رواية (ألكسندر دوماس الكبير) التي وخلافاً لعنوانها، كان أبطالها أربعة.

في الصف الرابع الابتدائي، أصبحنا جميعاً بذات المرحلة الدراسية بعد أن تخلف (عمر) عاماً دراسياً بسبب تشكل ورم في رأسه ضغط على عصب عينه، مما أفقده البصر؛ ولأن أباه كان يعمل في القصور الرئاسية، فقد استطاع الحصول على موافقة للعلاج على نفقة الدولة، فأرسلوه إلى لندن، وشفي تماماً.

عندما تقرر سفرنا إلى سوريا، وكنت حينها في العاشرة، تألمت كثيراً لفراقهم، بذات القدر الذي شعرت به لفراق (ليديا) عندما عدت من سوريا؛ وهكذا هو الحال في كل مرة يُخلِّف فيها المرء وراءه شخصاً قريباً إلى قلبه.

كان (أبو عمر) ممن تضرر من سقوط بغداد، حاله حال جميع منتسبي الجيش الذين فقدوا مصدر رزقهم بعد حل المؤسسة العسكرية؛ ولكي يعيل أهله، فقد بنى في حديقته الأمامية محلاً لبيع المواد الغذائية، يديره بنفسه.

كانت المفاجأة الكبرى التي تنتظرني حال رجوعي إلى بغداد، بعد فراق استمر ستة أعوام، هي (ريم) التي نضجت وأضحت تتفجر جمالاً وأنوثة؛ تفشي سر أنوثتها وتفاصيل جسدها الرائع، سراويل الجينز والقمصان الضيقة التي ترتديها.

كنت متردداً في نصب حبائلي لها بسبب ذكريات الطفولة البريئة التي كانت تجمعنا؛ ولكن إدمان الأنثى الذي كان يسري في عروقي كنمر متمرس يرى نصب عينيه نمرة يافعة وجميلة؛ جعل مشاعري المشبوبة تنفلت نحوها.

أقنعت نفسي، ووضعت مبرراً لتصرفي ذاك، وهو أن الفرصة إن لم أستغلها أنا، فسيستغلها غيري لامحالة، فقضي الأمر وفزت بها، وسرعان ما نشأت بيننا علاقة حب عاصفة؛ من يدري؟ لو لم أغادر إلى سوريا، ولم أتعرف على (ليديا)، فلربما بقينا مجرد صديقين لا غير!

كانت حب حياتي الذي جعل قلبي يخفق بشدة ويضطرب عند كل لقاء يجري بيننا؛ في البدء كان الأمر مقتصراً على قبلات

سريعة، وبعد شهرين من المثابرة والإلحاح، استسلمت لي ومنحتني كنزها.

كان المساء مقدساً عند أبي، وطقوسه ثابتة لا تتغير؛ نصف زجاجة عرق، وقطع الخيار المخلوطة باللبن الحامض والثوم، وأغاني (ياس خضر)، وكنت أستغل ذلك الوضع، فأقود سيارة أبي بصحبة أصدقائي الثلاثة، في جولة في شارع فلسطين لغاية سريان منع التجوال في شوارع العاصمة.

كانت هنالك أزمة وقود حادة وطوابير السيارات المتوقفة عند محطات الوقود كانت طويلة بشكل لا يصدق؛ ومن يريد ملء خزان سيارته بالوقود دونما انتظار، كان يتوجب عليه شراءه من السوق السوداء بسعر باهض، أو أن يكون أحد معارفه يعمل في محطة وقود؛ وكان هنالك قريب لـ(عمر)، يمتلك محطة وقود، فيقوم بإدخالنا مباشرة لنملأ سيارتنا، وسط صيحات استنكار وشتائم المنتظرين في الطابور والتي لم نكن نعيرها آذاناً صاغية؛ وكان خزان الوقود المملوء، كافياً لتفادي اعتراض أبي على قيادتي السيارة التي هي مصدر رزق العائلة، ومن دون رخصة قيادة؛ أما أمي فكانت هي الأخرى، تغض النظر، ولا سيما إني من يتولى إيصالها إلى بيت خالي أو للتسوق من شارع فلسطين، لأن أبي يعود منهكاً إلى البيت.

بعد عودتنا من تجوالنا اليومي، نمضي الوقت بلعب (الطاولي) لساعة متأخرة، وبعد أن ينفض جمعنا، أو هكذا يبدو، يلتئم شملي بـ(ريم).

كنت أمضي معها ساعة أو أكثر، أغزو فيها جسدها الناعم واستبيحه المرة تلو الأخرى، وكانت هي تتمرغ تحتي مصدرة أصواتاً والهة، أكتمها براحة يدي؛ كي لا يتكشف أمرنا.

ذات ليلة تمادينا في ممارسة الحب، وبعد آخر جولة لنا هدنا التعب واستسلمنا للنوم. ولو لم يوقظنا صوت المؤذن لصلاة الفجر؛ لبقينا نائمين، ولأفتضح أمرنا، فحمدت الله وشكرته، لأن لا أحداً من أهلها كان يصلي.

تكيفت شيئاً فشيئاً مع محيطي الجديد، وبدأت السعادة تدب في روحي ثانية، ولا سيما تلك الساعات التي نمضيها أنا و(ريم) ملتحمين معاً.. وكان لما نفعله وقع المهدئ على أعصابي، ويزيح التوتر عن نفسي ويشعرني بفحولتي ومقدار جرأتي على خوض مغامرة التسلل إلى السطح حيث مسرح حبنا؛ وسرعان ما خبت ذكرى (ليديا) التي كانت أول أنثى تلج قلبي، وما عدنا نتواصل مع بعضنا. ولا بد وأنها عثرت على نمر آخر.

وكما تنبأ والدي في وقت سابق، فقد بدأت موجة من التطرف الديني والمذهبي تلوح في الأفق، حاصدة أرواح المئات من الناس، ضحايا المفخخات والاغتيالات، من دون احتساب أعمال الجريمة المنظمة التي بدأت تستفحل، وجرائم القتل التي يرتكبها الأمريكان.

كنا نتصرف حيال ما يجري بلا مبالاة وعدم اكتراث، وكأنها لا تعنينا، ونعتبرها مجرد صراعٍ بين أناسٍ متطرفين فقدوا السيطرة على كبح جماح الكراهية والعنف في نفوسهم، وتقودهم الأحقاد العمياء لارتكاب ما تعافه النفس البشرية من سلوك، أما نحن فلسنا كذلك، فنحن عقلاء القوم، ولا نحسب على أي من الفريقين.

كان حيّنا آمناً قياساً إلى غيره من مناطق العاصمة، فالناس هنا خليط من جميع أطياف المجتمع العراقي، ونزعة التعايش السلمي في السلوك، واضحة المعالم.

عندما كانت أمي تطبخ في محرم قِدراً كبيراً من (الهريسة)، تأتي (أم عمر) لمساعدتها في تقليبها طلباً للثواب، أما أنا وأولادهم، فنقوم بتوزيع صحون الهريسة على الجيران.

كانت الفتيات في حيّنا سافرات ويرتدين بنطلونات الجينز، وقمصاناً بنصف أكمام، على الرغم من موجة التشدد الديني

التي تفشت بشكل جلي، في مناطق لا تفصلها عنا سوى قناة الجيش التي لا تبعد عنا، غير كيلومتر واحد؛ فهناك عالم مختلف تماماً.

لكن السعادة لا يمكنها أن تدوم طويلاً في بغداد أو معي على أقل تقدير؛ فقد حدث أمر، تمزق جراءه النسيج المجتمعي وأزهقت بسببه أرواح الكثيرين، إنه تفجير مرقد الإمامين العسكريين في سامراء.

حينها شعر أبو (عمر) بعدم الأمان، وقرر الانتقال إلى حي (السيدية) ذي الأغلبية السنية، بالقرب من منزل شقيقه، بعد أن اتفق مع شخص شيعي تم تهديده هو الآخر في (السدية) من قِبَلِ المجاميع السنية المتطرفة، وأنذروه بوجوب مغادرة الحي؛ على تبادل محل سكناهما بشكل مؤقت، إلى أن تنقشع تلك الغمة.

منذ الصباح الباكر وأنا أساعد في تفكيك أثاث جيراننا وتوضيبها في سيارة الحمل لتنقلها إلى منزلهم في منطقة

(السيدية)؛ وهنالك في الأعلى حيث السماء، ثمة صراع آخر وكر وفر يدور بين الشمس التي ترسل إلينا توهجات أشعتها، وبين الغيوم التي كانت ترشقنا بزخات من المطر والبَرَد من حين لآخر، وعند منطقة محايدة من الأفق، تشكَّل قوس قزح بأطيافه الجميلة.

كنت أتبادل مع (ريم)، من حين لآخر، نظرات مغمورة بالحزن والانكسار، غير مصدقٍ حقيقة أني سأحرم من أحضانها منذ اليوم.

كنت مع (ريم) في الخارج نحمل رزماً عندما رشقتنا السماء بزخة سريعة ومفاجئة من المطر، جعلتنا نتبلل بالكامل؛ فهرعنا نركض لنلوذ بمكان يحمينا.

كان لمنظر التصاق ثوبها بجسدها وقعاً يدعو إلى الإغواء، وعندما التقت نظراتنا ثانية، أومأت لها بانحناءة بسيطة من رأسي لا تكاد تلحظ؛ لكنها كفيلة لتجعلها تفهم مرادي، فتسللت ووافتني إلى منزلي.

كان انتقالهم الفصل ما قبل الأخير لنهاية علاقتنا، ففي الأيام اللاحقة كنا نتواصل بشكل يومي ولاسيما أنهم لم ينتقلوا من مدارسهم؛ وعندما انقطعنا عن الدوام استعداداً لامتحان البكلوريا

أقنعت الثلاثة على المبيت عندنا لندرس سوياً كما كنا نفعل في السابق.

ولكن لقاءاتنا بدأت بالتراجع بعدما أنهينا الامتحانات وحلَّت العطلة الصيفية، فلم يعد بوسعي زيارتهم بعد أن أصبحت طرق الوصول إليهم محفوفةً بالمخاطر وغير مأمونة العواقب، بسبب الحواجز التي يقيمها الارهابيون؛ أما هم فزيارتهم لي ما زالت متاحة، وعند ذاك أغريهم بالمبيت عندنا، فنحظى أنا و(ريم) بفرصة ثانية نختلي بها إلى حين؛ لكننا لم نكن بتلك السذاجة لكيلا ندرك أن فرصة استمرار علاقتنا، أضحت مجرد وهم.

-٦-

أي لعنة هذه التي جعلت الأحداث تعصف من حولنا؟ وأي بؤس هذا الذي نعيشه عندما تُسْلب منا تلك المساحة الرمادية المحايدة التي كنا نلوذ بها؟ فنرغم على الانزياح لخيارين لا ثالث لهما؟

حدث ذلك في شهر أيلول (سبتمبر) عام ٢٠٠٦، عندما كان العام الدراسي الجديد على الأبواب.

في ذلك اليوم ذهبت أمي مع شقيقتي الصغيرة الجميلة، (فاتن) لشراء الملابس المدرسية والقرطاسية من السوق العربي قرب (الشورجة). لأن الأسعار هناك، أرخص مما عليه، في شارع فلسطين.

كانت الفرحة تحدو أمي لأن (فاتن) سترتاد المدرسة لأول مرة؛ نهضتا مبكرتين ليقلهما أبي بسيارته، ثم ذهب ليواصل طلب رزقه.

وبقي شقيقي (علي) ذو العامين في عهدتي، بعد أن أرضعَتْه، كان ينام كملاك جميل، وكنت أنا أروِّحُ له بقطعة من الورق المقوى لأن الكهرباء انقطعت، عندما سمعت دوي انفجار آتٍ من مكان بعيد.. فز قليلاً بشكل لا إرادي، ونظر

إلي وانفرج ثغره الصغير عن ابتسامة تعبر عن كل ما في العالم من براءة، ثم أغمض عينيه متابعاً النوم.

لم تكن التفجيرات شيئاً غير مألوف الحدوث في العاصمة، ففي اليوم الواحد كانت تصل العديد من رسائل الموت السوداء تلك، حاصدة أرواح أناس أبرياء، ومخلفة أجساداً مقطعة الأوصال وقلوباً مفجوعة، شقيقي الصغير المستغرق في نومه، لم يعرف أن حضناً غير حضن أمه، سيضمه منذ تلك اللحظة.

انتصف النهار وأمي وشقيقتي لم تعودا بعد؛ استفاق الصغير (علي)، من نومه وشرع بالبكاء، فأعددت له الحليب بالرَضَاعة، وألقمته إياها، فسكت إلى حين، ثم عاود البكاء.. كان يطلب أمه.. كل أطفال الخلائق في الكون يشعرون بالطمأنينة مع أمهاتهم؛ اتصلت بأمي، فكان الجواب: (الرقم المطلوب مغلق حالياً أو خارج منطقة التغطية)، أخذت أهدهده، فسكن قليلاً ثم عاود البكاء.. فأخذته إلى خارج المنزل.. وقفت عند الباب، فأسكته صوت حركة المارة وضجيج السيارات، ثم توجهت إلى المحل الملاصق لنا ـ محل أبي عمر سابقا والذي تابع جارنا الجديد إدارته ـ لشراء بعض الحلوى له. فقال لي وهو يهز برأسه:

- عدت قبل ساعتين من الشورجة، يا ساتر يا ربي مما رأيته بعد حدوث التفجير.. الجثث والأشلاء المحترقة بالعشرات، أما الجرحى فمن الكثرة بحيث نقلوهم بكل ما تيسر.

ساورني بعض القلق عندما علمت أن الانفجار حدث في الشورجة تحديداً، فاتصلت ثانية بأمي، فتكرر الجواب:(الرقم المطلوب مغلق حالياً، أو خارج منطقة التغطية). فأخذ القلق يظللني ولا سيما بعد أن اتصلت بعماتي عسى أن تكون قد عرجت لزيارتهن، وكلهن نفين ذلك؛ عاودت الاتصال مرات ومرات، ولكن النتيجة هي ذاتها.. وقلت في سريرتي:

- الله الساتر!

لم أكن أعرف ما الذي يتوجب علي فعله للاستعلام عن والدتي وشقيقتي اللتين تأخرتا كثيراً، فوالدي لم يكن يمتلك هاتفاً نقالاً. ولم يكن بوسعي سوى الانتظار.

عند الواحدة ظهراً رنَّ هاتفي النقال. كانت عمتي تسأل إن كانت أمي قد عادت أم لا. فأجبتها بالنفي. فأبلغتني بأنها ستأتي حالاً، لترعى شقيقي الذي عجزت عن إسكاته.

عاد أبي عند الثانية والنصف ظهراً. وأعلمته أن أمي لم تعد بعد إلى البيت. ولمته قائلا:

- لماذا لا تقتني هاتفاً نقالاً؟ لربما أنت الشخص الوحيد في العراق الذي لا يمتلك هاتفاً.

عندما يتأخر شخص ما عن العودة إلى أهله في بغداد في هذه المحنة التي أصابتها، فإن دائرة البحث عنه لن تخرج عن حدود المستشفيات. وهكذا فعلنا.

عثرنا على جثتيهما في مدينة الطب، كانت جثة (فاتن) كاملة فيما خلا كفها الأيمن، أما أمي فكل ما تبقى منها هو الرأس وجذعها الأيسر، وكان كفها لايزال ممسكاً بكف شقيقتي المقطوع.

لاحقاً أعلنت جماعة التوحيد والجهاد مسؤوليتها عن الحادث الذي نفذه انتحاري عربي بسيارة مفخخة.

هل يدرك ذلك (الجهادي) الذي نفذ جريمته القذرة وهو يصرخ (الله أكبر)، أن أمي حينما كانت تتعبد الله، تذرف الدمع خشوعاً وتذللاً وتدعو بالخير لجميع المسلمين والمسلمات، وأن تلك جملة (الله أكبر) منقوشة على علم العراق؟

كان وقع الصدمة علينا مضاعفاً، ولم ينتهِ عند فقد أمي وشقيقتي فقط، بل إن عمتي (كوثر) أخذت شقيقي لترعاه عندها، لنفقده هو الآخر بعد أقل من عام، عندما أصابته

رصاصة طائشة بمقتل، أطلقها المحتفلون بفوز منتخبنا الوطني لكرة القدم بلقب بطل آسيا، عام ٢٠٠٧.

مقتل أمي وشقيقتي هز كياني بعنف وأزاح عن عقلي رجاحته وجعلني أفكر بشيء واحد فقط، وهو طلب الثأر لهما.

كان (منتظر)، ابن عمتي (يسرى) التي تسكن في منطقة (البلديات) عند القناة، يقود إحدى المجاميع التي تشكلت لمقاومة الاحتلال وصد هجمات الإرهابيين الشرسة التي عصفت بالبلد، فأبلغته أثناء فترة العزاء، برغبتي للانضمام إلى مجموعته،

كان منتظر يكبرني بسبع سنين، قد لا يبدو الفارق كبيراً؛ ولكنه كالفرق بين نصل السيف ومقبضه، فعلى عكسي تماماً، عاش هو محن الحروب والحصار، وذاق طعم مرارة الحياة، فبصقها.

رمقني بنظرة ملؤها شفقة، وهز رأسه معترضاً، فألححت عليه متوسلاً حتى وافق على طلبي مشترطاً أن ألتزم دينياً، ففعلت.

كانت المجموعة التي يقودها، تضم عدداً كبيراً من الشباب في مقتبل العمر، معظمهم عاطل عن العمل أو تارك لدراسته؛ ولكنها ضمت أيضاً، منتسبين في الجيش والشرطة، من بينهم ضابط شرطة برتبة مقدم يدعى (صلاح)، كنا نستخدم سيارة الشرطة التي بعهدته لنقل العبوات الناسفة والمخطوفين لأنها لا

تخضع للتفتيش؛ وكان معنا خبير بإطلاق صواريخ الكاتيوشا، يدعى(مالك).

كان(منتظر) يريد مني أن أولي دراستي الجامعية اهتماماً أكبر؛ لذا فقد أوكل إليَّ مهمة مراقبة ورصد حركة القوات الأمريكية المتمركزة داخل الأقسام الداخلية القريبة من الجامعة المستنصرية، بحكم كوني من سكنة تلك المنطقة؛ ولكن بعد أن اشتدت ضراوة الهجمات الإرهابية ضد العسكريين والمدنيين على حد سواء، تقرر شطر المجموعة إلى قسمين، الأول متخصص بالعمل العسكري، وهو كل ما يتعلق بمقاومة المحتل ويقوده (مالك). أما القسم الثاني فيتخصص بالعمل المدني، وهو ما يتعلق بتعقب العملاء للمحتل، والتكفيريين وتصفيتهم، ويقوده (منتظر)؛ فتبعته بدوري.

كان لدينا مقر في مدينة الصدر، هو في الأصل ورشة لصناعة السخانات المنزلية تعود لأحد أفراد مجموعتنا، وذات يوم جيء بشخصٍ ضخم الجثة معصوب العينين ويداه مكبلتان إلى خلف ظهره بالأصفاد التي كانت تضغط على معصميه بشدة، بحيث أزرقتا بسبب انقطاع الدورة الدموية عنهما. أنزلوه وألقوه في مخزن الورشة، ممدداً على وجهه. وكان وجه (منتظر) يتهلل فرحا وقال:

- هذا صيد ثمين.

نظرت إلى الرجل، وأقول الحق، لقد رق قلبي لحاله. فتساءلت متشككاً:

- هل أنتم واثقون من صحة المعلومات؟

فنظر إلى نظرةً، ملؤها عتاب، وقال:

- نحن أصحاب الدليل، أينما مال نميل، لا نأخذ على الظنة، ولا نستهدف غير قوات الاحتلال والإرهابيين الذين ينوون إشعال الفتنة الطائفية.

ولجنا الغرفة، وأول شيء فعله (منتظر) هو تسديد ركلة شديدة إلى وجه المختطف الذي لم تصدر عنه أي ردة فعل.،

ثم قال له مقدم (صلاح) :

- سأطرح عليك بعض الأسئلة، وكن على ثقة، أننا نعرف الكثير عنك، فخير لك أن تجيب عليها بصدق، لكي تجنب نفسك عناء التعذيب.

بقي الرجل على صمته، فأعقب المقدم:

- دعوه يجلس.

أسندنا ظهره إلى الحائط، من دون رفع العصابة عن عينيه.

- إلى أي تنظيم تنتمي؟

خرجت من فمه همهمة لم نفهمها، فانتهره مقدم (صلاح) قائلاً:

- ارفع صوتك.

همهم ثانية فأدركت أن ريقه جاف، وأنه يطلب ماءً، فسقيته وحينها نطق:

- تنظيم قاعدة الجهاد.
- وما هي العمليات التي نفذتها؟

ظل الرجل يسرد عملياته الواحدة تلو الأخرى، وكنت فاغراً فاهي وأنا أصغي لهول ما أحدثه ذلك الوحش من شنائع. وكان (منتظر) يلاحظ ذلك عليَّ ويبتسم.

عندما أنهوا التحقيق؛ سلمني (منتظر) مسدس الرجل، نوع (گلوك، عيار تسعة مليمترات، نمساوي الصنع)، وقال لي:

- هذا المسدس غنيمة، وهو لك. فأنت الفرد الوحيد في مجموعتنا الذي لا يمتلك مسدساً.

أمسكت المسدس بيدي وقلبته، فأعجبني مظهره وأعجبتني فكرة امتلاك مسدس خاص بي.

لكن (منتظر) فاجأني بقوله:

- ستقوده إلى خلف السدة و(تُنَفِذْ) به.

قدناه إلى منطقة تقع عند الأطراف الشرقية لمدينة الصدر. تدعى السدة. وهي مرتفع ترابي أقيم لدرء خطر الفيضانات التي كانت تجتاح بغداد على غرار تلك التي أنشأها الوالي

العثماني، ناظم باشا والتي أحاط بها بغداد مطلع القرن العشرين، ولكن بمسافة أبعد بخمسة كيلومترات شرقاً، بسبب تمدد بغداد على الأراضي التي تقع خلف السدة الأولى، بما عرف حينها، بمدينة (الثورة)، التي تغير اسمها لاحقاً إلى مدينة (صدام)، ثم مدينة (الصدر).

وصلنا هناك، وكنا قد جلبنا معنا معولاً لشق حفرة نطمره فيها، ولكننا وجدنا مجموعة أخرى كانت قد سبقتنا إلى ذات المكان، وكانوا قد باشروا لتوهم ردم حفرة، رموا فيها جثث ثلاثة أشخاص كانوا قد أعدموهم. وعندما شاهدونا، قال لنا أحدهم:

- هنالك متسع في حفرتنا، فلا داعي للحفر. ادفنوه مع هذه الكلاب.

عندما حانت لحظة التنفيذ، أجلسناه عند حافة الحفرة على ركبتيه دون أن يبدي أية ممانعة أو ردة فعل، بدا مذعناً ومستسلماً تماماً لقدره، شهرت مسدسي وألقمته رصاصة ثم صوبته إلى رأس الرجل؛ ولكن قلبي أخذ يخفق بشدة، وارتعشت يدي مرتبكة، ولم تقوَّ على الضغط على الزناد، بينما جلس هو بهدوء وسكينة مطرق الرأس. مرت لحظات خيم الصمت فيها على الجميع متوقعين سماع دوي الرصاص في أية لحظة، لا أعلم كم مضى من الوقت، لربما عشر ثوان أو عشرون ثانية؛

ليدرك (منتظر) مدى ارتباكي واضطرابي. كان متيقناً من أني إن لم أُقْدِم على قتل الرجل الآن؛ فإنه لن يكون بمقدوري فعل ذلك في أي وقت لاحق، فراح يشجعني ويذكّرَني بالآية:(ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب).

انسابت من فمه كلمات الآية وكأنه واعظ يعتلي منبراً، ولكن يدي كانت كليلة ولم تتوقف عن الارتجاف؛ شعرت بأن المسدس أصبح ثقيلاً ولم تعد قبضتي قادرة على حمله؛ كنت أكابد شعوراً طاغياً بالذنب لما أنا مقدم عليه، لربما يستحق هذا المجرم، الموت؛ ولكن من الذي نَصَّبني وأعطاني الحق لألعب دور القاضي والجلاد؟

وفجأة صرخ فيَّ مؤنباً:

- أنسيت ما صنع هؤلاء بأمك و(بفاتن).

فجأة تمثل نصب عينيي جسد أمي المقطع الأوصال، ووجه أختي الصغيرة (فاتن) البريء المغروس بالمسامير؛ حينئذ أخذت الدماء تفور في عروقي وشعرت بألم الفاجعة يفري كبدي ويشحن قلبي بالحقد والضغينة نحو هذا الوحش المجرم، وجعلني الغضب أرتعش كالمحموم، فأطلقت الرصاص عليه، وأنا أصرخ على نحو هستيري:

- حقيـر.

كنت أشبه بشخص دخل في غيبوبة. وكان كل شيء قد انتهى منذ أول رصاصة أطلقتها، عندما هوى جذعه الأعلى في الحفرة؛ لكني بقيت مصوباً المسدس وأطلق النار لغاية آخر رصاصة.

لم أستفق من غيبوبتي إلا بعد أن ربت (منتظر) على كتفي مهنئاً وقادني كالأعمى نحو السيارة، بينما تكفلت المجموعة بدفع ساقي الرجل داخل الحفرة وردمها، وكأن شيئا لم يكن.

أثناء رجوعنا، اقترح (منتظر) دعوتنا لتناول الغداء في أحد المطاعم احتفاءً بما قمت به.

عند المطعم كنت أبادل كلمات الإطراء التي خصَّني بها الشباب، لأني أدركت ثأري من قتلة أمي وأختي؛ بابتسامة مصطنعة توحي بأن السعادة تغمرني، ولكني في الحقيقة كنت أشعر بتسارع خفقان قلبي من غير انتظام، وكأنه يريد الخروج من مكانه، ورغم ذلك تمكنت من السيطرة على انفعالاتي لأبدو أمامهم متماسكاً.

ثم وعلى حين غرة غادرتني تلك الانفعالات تماماً، عندما قُدِّمَوا لنا المقبلات وشرعت بتناولها؛ وبطريقة ما، اكتشفت لاحقاً أن تناول المقبلات؛ يعمل على تشتيت كل تلك الانفعالات، فكنت

وبلا وعي مني أرتاد المطعم بعد كل عملية قمت بها لاحقاً، وكأنه مسك الختام لطقوسنا المقدسة.

ولكن في تلك الليلة بدا الأمر مختلفاً. فما إن أغمضتُ عينيَّ، حتى صار طيف ذلك الرجل يلاحقني بلا هوادة؛ حلمت بيده تخرج من الحفرة التي دفناه فيها، وتُطْبِقُ على رقبتي فينقطع تدفق الهواء إلى رئتي؛ فأفقت من نومي مرعوباً ولاهثاً؛ وكأن ما رأيته في المنام شيئاً حقيقياً.

أنرت المصباح الكهربائي، وتابعت قنوات التلفاز، في محاولة مني لإقصاء ذلك المشهد المرعب من مخيلتي، ولكني في سريرتي كنت ألوم نفسي لما قمت به، وددت لو أن أحداً غيري أجهز عليه وكفاني مؤونة الشعور بالذنب؛ ولكن نظرة واحدة إلى صورة والدتي وشقيقتي المعلقة على الحائط، كان لها وقع مهدئ علي، فعاودت النوم، ليقتحم الكابوس أحلامي ثانية.

مع مرور الوقت، أجهزت على أشخاص آخرين، وأضحى للقتل وقع يبعث على الارتياح والرضا، مماثل لما كان يفعله فيَّ ممارسة الحب فيما مضى؛ فهو يشعرني برجولتي ويزيح التوتر عن نفسي؛ كيف لا وأنا اليد الضاربة بالحق!

في أغلب الأحيان، كانت مشاهد من يقعون بأيدينا متماثلة ومكررة؛ وجوه يغشاها الشحوب، إذعان وخنوع واستسلام. لربما

لأنهم كانوا يأملون بحلول معجزة ما لتنقذهم! أو أنهم يرفضون تصديق حقيقة أن نهايتهم ستحل عند هذه النقطة تحديداً؛ جميعنا نفكر بذات الطريقة، فكلنا نعلم أننا راحلون عن هذه الحياة في يوم ما، ولكننا نعيش على أمل أن يُرجأ ذلك اليوم إلى وقت لاحق نكون فيه قد كبرنا وهرمنا؛ إلى زمن تتساوى فيه رحمة الموت مع قسوة الحياة.

طرائق الموت قتلاً ليست متشابهة؛ قرأت ذات مرة، أن مجموعة من الأسرى في معسكر نازي، انتفضت وتحصنت داخل إحدى القاعات، فخيرهم الجنود النازيون الألمان بين الإعدام شنقاً إن هم استسلموا أو نحرهم بالمنشار إن قبض عليهم، فاختاروا الاستسلام والموت شنقاً.

ولكن كان بعض ممن أمسكناهم يعلمون علم اليقين بما سيؤول إليه مصيرهم، فيقذفننا بسيل من الشتائم التي تكون في معظمها ذات نكهة طائفية، لربما يفعلون ذلك ثأراً لأنفسهم وأرواحهم التي ستزهق سريعاً، أو أنهم يدفعونا للإسراع بقتلهم ليتجنبوا بذلك التعذيب أو الإهانات التي نسديها لهم أثناء التحقيق معهم.

وفي هكذا حالة، كنا نعمد إلى التأني بقتلهم.. رصاصة في كل ساق، تتبعها رصاصة لكل ذراع، ثم نتركهم يتلوون من فرط

الألم بالقدر المناسب، ثم نطلب منهم الاعتذار؛ فإن فعلوا، نفجر رؤوسهم برصاصة، وإن بقوا مصرين نعمد إلى إضرام النار فيهم، وتركهم ليتفحموا.

كانت هنالك قلة ممن يتوسلون ويستحلفون لكي نُبقي عليهم، فيقسمون بأيمان غليظة، بأنهم أبرياء؛ ولكن ذلك كله لن يجدي نفعاً؛ وكنت أنظر إليهم بعين الازدراء، فهذه هي شيم الجبناء، ومن المفترض أن يكون تصرفهم على قدر عالٍ من الشجاعة، ما داموا قد انخرطوا للقيام بأفعال من قبيل قطع الرؤوس وتمزيق الأشلاء بدم بارد؛ لابد وأن ضحاياهم، وأغلبهم لم يقترفوا ذنباً، قد توسلوا إليهم! فهل رق قلبهم لتلك التوسلات؟

كان العمل (المدني) مضنياً، فهو يتطلب التحري، وجمع المعلومات، ومراقبة الهدف الذي يكون في الغالب محترزاً ومحتاطاً في حركته؛ وفي بعض الأحيان يكون محفوفاً بالمخاطر لاسيما عندما ننفذ مهمة في مناطق تسيطر عليها المجموعات الإرهابية.

عام ٢٠٠٧، أوقعنا بإرهابي كبير، داخل منطقة نفوذه وألقينا القبض عليه وأجلسناه في المقعد الخلفي من السيارة؛ وكنت أنا عن يمينه، ومقدم (صلاح) عن يساره، بعد أن جردناه من

مسدسه وحزامه الناسف الشخصي المخصص للانتحار في المواقف المماثلة.

انطلقت السيارة مسرعة، خشية أن يُبَلَّغ عن الأمر، فتغلق المنطقة ونحاصر فيها.. أجْبَرْناه على أن يطأطئ رأسه إلى الأسفل حتى لا يميزه أحد من المارة؛ ولكن ما لم يكن في الحسبان، أنه كان يحمل مسدساً صغيراً مشدوداً إلى ساقه، وبحركة مباغتة أخرجه وأطلق النار صوب مقدم(صلاح) بحكم كونه يستخدم يده اليمنى وبوسعه استهداف من هو إلى يساره. فأرداه قتيلا على الفور، وكان على وشك قتل السائق قبل أن أتمكن أنا من الإمساك بيده ودفع فوهة المسدس جانباً، بينما تولى (منتظر) الجالس في المقعد الأمامي الإجهاز عليه وقتله.

–٧–

بعد أن حزمت أمري على السفر إلى ألمانيا، توجب عليَّ تدبر المال، فبعت سيارة والدي بثلاثة آلاف دولار، هو ما تساويه قيمة لوحة الأرقام، أما السيارة بحد ذاتها، فلا قيمة لها مطلقاً؛ وكذلك بعت مسدسي بألفين وخمسمائة دولار، أما المنزل، فلم أكن لأفرط به بأي حال من الأحوال؛ فمن يدري ما الذي يخبئه لي القدر؟ فمن الجائز ألا يحالفني الحظ وأضطر للعودة إلى العراق! فعلى أقل تقدير سيكون لي بيت يأويني، لذا عرضته للإيجار وطلبت فيه خمسمائة دولار عن كل شهر، مع دفع مقدم سنة كاملة؛ فأخذت طلاءً وفرشاة وكتبت على الجدار بخط عريض، (المنزل معروض للإيجار).

وبحكم موقعه المتميز فقد تقدم أشخاص عديدون؛ ولكن شرط الدفع المقدم لعام كامل كان يحول بين عقد اتفاق بيننا. أحد المتقدمين عرض دفع إيجار أعلى شريطة أن أسقط مطالبتي بالمقدم. وآخر وافق على دفع المقدم شريطة خفض مبلغ الإيجار الشهري. في نهاية المطاف، جاءني مؤجر وافق على طلبي، شريطة أن أسمح له ببناء محل تجاري في الفسحة الأمامية لمنزلي وعلى نفقته الخاصة، مقابل بدل إيجارٍ شهري للمحل، قدره أربعمائة دولار أخرى. ولكنه اشترط مقابل ذلك ألَّا

أطلب منه إخلاء المنزل لخمس سنوات على الأقل؛ كان ذلك عرضا لا يمكنني تفويته، فوافقت على الفور. وبذلك أصبح بحوزتي مبلغ يفوق المطلوب مني.

مساء ذلك اليوم، جاءت عمتي(كوثر) لزيارتي؛ أوصلها ابنها الأكبر (حسين) الذي ذهب مع زوجته وولديه لقضاء بعض حوائجهم في شارع فلسطين، ولاح لناظريها إعلان الإيجار في الخارج، فبدأت تحاصرني بأسئلتها، فاضطررت لإخبارها. فشهقت شهقةً كبيرةً، وهي تقول:

- ولدي (حسن)! لماذا تريد أن تتركنا وتهاجر؟ من لك هناك؟ أنت الشخص الوحيد المتبقي للمرحوم أخي! لن أدعك تسافر.
- عمتي لقد حسمت أمري، لم يتبقَّ لي هنا أي بصيص أمل لأعيش بأمان وكرامة؛ إنه لمن المحزن أن تكون أجمل سني حياتي هي تلك التي عشتها في سوريا فقط، أما هنا فقد أهدرتها بين حصار واحتلال وحرب طائفية وداعش؛ مسلسل له أول، وليس له آخر.

كلامي بالطبع لم يقنع عمتي التي تَشَبَّعَ فكرها بكوني الذكر الأخير في الأسرة؛ تلك الفكرة التي لربما ورثتها عن جدي، أو أنها تأثرت بقصة فلم (آخر رجال الموهيكانز).

وفي محاولة منها لتثنيني عن السفر، قالت:

- ولدي حسن تعال واسكن معنا، والمبلغ الذي بحوزتك استثمره في عمل ما، من رَضي بالقليل فاز بالكثير؛ ما الذي جناه والدك من فكرة السفر إلى ألمانيا، غير الفشل والخسران؟
- عمتي، والدي أخفق لأن خطواته لم تكن مدروسة كفاية، كان من المفترض به أن يذهب وحده في بادئ الأمر، وبعد أن يستقر، يرسل في طلبنا. بالضبط كما فعل عندما ذهب إلى سوريا؛ ثم إنه لا يمكنني بأي حال من الأحوال العيش معكم في بيتكم، فهو لا يسعكم أصلاً!
- سنبني لك على السطح غرفة، نحن على أية حال كنا نفكر ببنائها.
- عمتي ليس الموضوع بالسهولة التي تظنين! فهناك زوجة(حسين)، وهي بالنسبة لي من غير المحارم. وسيتوجب عليها التقيد بارتداء الحجاب بحضوري.

فانتفضت عمتي مُستَفَزة بشعور الحماة تجاه كنتها، وقالت:

- لا يضيرني أن ترتديه موصلة ليلها بنهارها، فأنت أهم عندي منها.

بدأت أشعر بحصار عمتي يُطبق علي؛ كانت صادقة بشعورها نحوي، فهي المرأة الوحيدة بين نساء الأرض التي تكترث لشأني ولهذا السبب لم يكن بمقدوري أن أردها بكلام فظ يجرحها، فكنت أنتقي حججي بعناية فائقة، ولكنها كانت تفندها الواحدة تلو الاخرى، كان الوضع أشبه بلعبة شطرنج نخوضها بيننا.

سددت لها آخر ما في جعبتي من حجج وقلت لها:

- عمتي! وماذا لو رغبت في الزواج في يوم ما؟ لن أرتضي لزوجتي ما ترتضيه أنتِ لكنتك.

ظننت أني بذلك أكون قد أفحمتها، بَيْدَ أنها فاجأتني بشيء غير متوقعٍ على الإطلاق.

- إذن، سأزوجك من (فاطمة) ابنتي! فقط اصبر عليها لتكبر قليلاً.

الشيء المؤكد أن (فاطمة) ذات الأربعة عشر ربيعاً، كانت فائقة الجمال، ولابد وأن تصبح محط أنظار الشبّان في غضون سنوات، لكنها تذكرني دائما بأختي الراحلة (فاتن)، لأنها تشبهها لدرجة كبيرة. قلت لها مستنكراً:

- عمتي ما الذي تقولينه؟ أن أتزوج من فاطمة التي أكبرها بثلاثة عشر عاماً! والتي أعتبرها مثل شقيقتي (فاتن)!
- إنها ليست (فاتن)! هنالك شبه فقط، أنت أيضاً تبدو قريب الشبه من ابني (حسين)؛ وهذا حدث بسبب الزواج المتبادل بيننا، أما الفارق في السن فهو مجرد رقم، لن تكون أنت الأول أو الأخير الذي يتزوج من فتاة تصغره.

لم يتبقَّ لي للتملص من إلحاحها؛ غير استخدام الطريقة الفظة لأقطع دابر الحديث، فقلت:

لقد عزمت أمري على السفر، ولن أتراجع بأي حال من الأحوال. سأجرب حظي بعيداً عن هنا، فإن وفقني الله أكون قد نلت ما رجوته، وإن فشلت فالخيارات الأخرى التي ذكرتيها لي، ستكون متاحة.

أُسقِط في يد عمتي، ولم يتبقَّ لها سوى البكاء وذرف الدموع.

تسلمت المبلغ نقداً من المؤجر، واتفقت معه على أن يمهلني بضعة أيام، قبل أن أخلي له المنزل؛ ولكني أبلغته بأن بمقدوره الشروع حالاً في بناء المحل.

عند الساعة السادسة صباحا، تسلل شعاع الشمس عبر ستارة النافذة الموشاة بأزهار زرقاء كبيرة، فأضيئت غرفة نومي بلون أزرق باهت؛ ولكنه لم يكن كافياً ليرغمني على النهوض، فهنالك ساعتي البيولوجية التي لم يزف موعدها بعد، إلا أن الجلبة التي أحدثها عمال البناء الذين استقدمهم المؤجر الجديد، هي من سرقت النوم من عيني، بيد أني لم أغادر فراشي، وأخذت أتصفح حسابي على الفيس بوك من هاتفي النقال.

بعد ساعة ونصف انقطع التيار الكهربائي، فنهضت لإعداد الفطور، بعدها رحت أبحث عن أشياء تليق للاحتفاظ بها كإرث لعائلتي المنكوبة؛ لم أجد ما يستحق، غير ألبومات الصور، ثم وقع بصري صدفة، في دولاب والديَّ، على حذاء بناتي أسود جديد يعود حتماً، لشقيقتي فاتن، فأخذت أقلبه؛ قد يبدو مجرد حذاء لم يسعفها القدر لكي تلبسه؛ ولكن تراءى لي، وكأنه يختزل كل تفاصيل الفاجعة؛ هل كان (همنغواي) يقصد حالة مماثلة في قصته القصيرة جداً (للبيع، حذاء طفل، لم يلبس قط.).

قررت أن أحتفظ به وبأشياء قليلة أخرى مع ألبومات الصور، في علبة من الورق المقوى؛ أما بقية الأثاث، فوهبته لرجل

خمسيني، يدور بعربة يجرها حصان، ويشتري الأشياء القديمة؛ كان واضحاً على وجه المكدود، خذلان الدنيا له، كما خذلت حصانه الأصيل، الذي يقف منتصباً بقوامه الممشوق، والذي قادته أيدي النهب بعد سقوط النظام، إلى مصيره البائس هذا.

فكرت أن من اللائق توديع عماتي ومعارفي قبل رحيلي، فتهيأت للخروج من المنزل والتوجه أولاً إلى بيت عمتي (يسرى)؛ حاملاً معي صندوق ذكرياتي، لأودعه عندهم.

كان الوقت مبكراً للقيام بزيارة، ولكني اضطرت لفعل ذلك لضيق الوقت.

ألقيت التحية على عمتي وأرملة المرحوم(منتظر) وأخبرتهما أني سأسافر، ولم أتطرق معها بشأن التفاصيل، لأتجنب طرح الأسئلة المكررة.

سألتني عمتي إن كنت سأعود قبل حلول (أربعين) أبي، فكانت إجابتي مراوغة:

- بإذن الله.

ودعتهما بعد أن أعطيت أرملة المرحوم (منتظر) خمسمائة ألف دينار، ثم توجهت إلى منطقة الجوادر، حيث زرت عائلة المرحوم (مالك)، الذي استشهد قبل سبع سنوات؛ استقبلني ابنه (أشتر) الذي كبر بشكل لافت، وأصبح في السادس الابتدائي.

حييت والدته التي ترمَّلت وهي في مقتبل شبابها، حالها حال عشرات الآلاف من الشابات، وأعطيتها خمسمائة ألف دينار كذلك؛ فكادت أن تبكي من فرط الفرح.

كان وضعهم المادي متردياً بشكل لا يصدق، ومعيلهم الوحيد هو هذا الصبي الشجاع الذي يجمع علب الألمنيوم الفارغة من بين الأنقاض ويبيعها بثمن زهيد؛ فأخذت تدعو لي بالتوفيق والبركة.

كادت العبرة أن تخنقني، ووددت لو كان بمقدوري أن أعطيها مبلغاً أكبر. وقلت لها:

- إن وفقني الله فلن أنساكما أبداً.
- الله يوفقك. نِعْمَ الأخ أنت. لقد تنكر لنا الجميع.
- الله لن ينساكما.

كان (مالك) نحيف الجسم، قصير العود، في الثلاثين من العمر، متزوجاً من ابنة عمه ولديه ولد؛ لكنه بلا أدنى ريب، كان أفضل مطلقٍ للكاتيوشا. كان بوسعه إصابة كأس ماء إن أراد ذلك، فضلاً عن كونه كتوماً ولا يعلم بشأنه سوى بعض

المقربين. براعته تلك، هي التي أفضت إلى مصرعه في نهاية المطاف.

بعد انشطار مجموعتنا، أضحت لقاءاتي به محدودة، ولكنها توثقت كثيراً بعدما أصبح مطلوباً للأمريكان مطلع عام ٢٠٠٨. كانت البداية عندما سمع (مالك) بشيخ معمم في نهاية العقد الثالث من العمر، وسيم الوجه ودمث الأخلاق، يدعى (سجاد) يبحث عن رامٍ ماهر لضرب مركز قيادة داخل القاعدة الأمريكية، كان قد حصل على إحداثياته الدقيقة بجهاز الـ(جي بي أس) من قِبَلِ أحد المترجمين المتعاونين. فأسرَّه (مالك) بأن لديه المهارة الكافية لإصابة الهدف. فزوده بعدة صواريخ، شريطة أن يكون التنفيذ بحضوره شخصياً.

كانت تلك آخر مهمة ينفذها؛ لأن الأمريكان أخذوا يطاردنه بشكل محموم وغير معهود؛ فداهموا منزله عدة مرات، ولما أخفقوا بالعثور عليه، أخذوا يداهمون منازل معارفه الواحد تلو الآخر. ولم تكن المداهمات عشوائية، بل كانوا يتتبعون البيوت التي كان يتردد عليها فعلاً. ولكن محاولاتهم كلها، باءت بالفشل بفضل الحس الأمني الذي كان (مالك) ـ رحمه الله ـ يتحلى به. فكان لا يلبث في مكان واحد أكثر من بضع ساعات، ولا يعاود المبيت في ذات المكان، إلا بعد مضي فترة

من الزمن، وعندما فكر في التواري عن الأنظار في مكان لا يخطر على بال المصادر التي تُبَلِّغ الأمريكان عنه، التجأ إلي فآويته لعدة أشهر، وهكذا توطدت علاقتي به.

كان مرتاحاً في إقامته عندي لأنه لم يكن مقيداً في بيتي، كما هو الحال في بيوت معارفه الآخرين، بحكم أن بيتنا يخلو من النساء، ولكن الشعور بالأمان والراحة بالنسبة له كان أشبه بغيمة صيف عابرة لا تروي روحه القاحلة، ابنه وغريزته الطبيعية لممارسة حقه كزوج كانتا نقطتي ضعفه التي أجبرتاه على التخلي عن احتراسه.

تلك الليلة كنا نتجاذب أطراف الحديث حول أمور عديدة، وعندما تطرق إلى شقاوة وطرائف ولده (أشتر) الذي بلغ عامه الخامس؛ أخذ حديثه يتدفق بحرارة وعاطفة، وقال:

- عندما تتزوج يا حسن وتغدو أباً، ستدرك أن ساعة واحدة تمضيها مع عائلتك، تعادل عاماً كاملاً بعيداً عنهما.

توقف عن الكلام فجأة، وارتسمت على محيّاه ابتسامة وادعة، ولكن عينيه الساهمتين، كانتا تفصحان عن حزن دفين يكتنفه؛ خيَّمَ صمت ثقيل لبضع ثوانٍ، ثم أنتصب واقفاً وطلب مني أن

أوصله إلى بيته؛ فنزلت عند رغبته، ولاسيما أنه كان ما يزال أمامي متسع من الوقت قبل سريان منع التجوال.

بعد ساعة من ذلك، وردني خبر مصرعه على يد الجنود الأمريكان الذين داهموا منزله؛ اقتادوه إلى الحمام وأعدموه بدم بارد هناك، أمام أنظار عائلته، فأصيبت زوجته المفجوعة بنوبة هيستيرية، وهجمت على أقرب فرد منها، وهو المترجم العراقي الذي رافق تلك القوات؛ وقبل أن يتمكنوا من صدها، كانت قد أماطت اللثام عن وجه ذلك المترجم.

إعدام القوات الأمريكية لـ(مالك) كان لغزاً محيراً ومدعاة للتساؤل عن السر الذي يكمن وراء ذلك؟ فالكثير ممن اعتقلتهم قوات الاحتلال، أودعتهم المعتقلات لفترات، ثم أفرجت عنهم. فلماذا أعدموه؟

أخذ(منتظر) على عاتقه التحري عن السبب، وكان الخيط الوحيد الذي يُمَكِّنه من الوصول إلى الحقيقة هو أوصاف ذلك المترجم العراقي.

فبدأنا حملة واسعة للبحث والتحري عن المترجم. ولم يكن من اليسير معرفته لأن المترجمين متخفون ويعملون بسرية عالية.

وبينما كنا في متاهة البحث التي لم تفضِ إلى نتيجة.

ذات يوم حضر الشيخ (سجاد)، وأبدى مساعدته قائلاً:

- ثمة مترجم متعاون معنا، سأستعين به في البحث عن ضالتنا.

وبعد بضعة أيام أتانا بمعلومات عن مترجمٍ ملامحه قريبة من الوصف المذكور، يسكن في منطقة الفضيلية وزودنا بعنوانه الكامل؛ فتوجهنا إليه وخطفناه، وأتينا به إلى المقر، لنحقق معه بحضور شيخ (سجاد).

ولم ينكر الشاب من أنه عمل في السابق مترجماً؛ ولكنه كان متعاوناً مع إحدى مجاميع المقاومة في منطقة الفضيلية ويمرر لهم معلومات عن تحركات الأمريكان؛ وعندما افتضح أمره بسبب وشاية، ترك العمل بعد أن أصبح مطلوباً للأمريكان.

فانبرى الشيخ قائلاً لنا:

- قائد المجموعة التي ذكر أنه يتعاون معها صديق لي، سأتصل به لأتأكد إن كان صادقاً أم كاذباً، رغم أن مصدري الذي بَلَّغَ عن هذا العميل، غاية في الثقة.

أجرى الشيخ اتصالاً وتعمد فتح السماعة الخارجية لنسمع رد الطرف الآخر؛ وجاء الرد حاسماً، (الشخص المذكور هو مترجم عميل).

كنا نعي أن الإنكار هو خط الدفاع الوحيد للبقاء على قيد الحياة في مثل هذا الوضع؛ ولكن عند نقطة ما، يكون

الاعتراف وتقبل الموت أرحم بكثير من التعذيب؛ لكن الأمر هذه المرة بدا مختلفاً، فبالرغم من التعذيب العنيف الذي ألحقناه به، بقي مصراً على أقواله. كان يبكي ملتاعاً ويقول:

– اتقوا الله فيَّ، فأنا بريء مما تنسبونه لي.

في نهاية المطاف قدحت في ذهني فكرة؛ التقطت له مجموعة من الصور وأرسلتها لأرملة المرحوم (مالك) لتشخِّصه، فنفت أن يكون هو المترجم المقصود؛ فبقينا في حيرة من أمرنا، لكن الشيخ قال:

– لربما ليست له يد في قضية (مالك)، ولكنه على أية حال يستحق العقاب، لأنه خائن. فمصدري موثوق به.

كان الشيخ محل ثقة، ولا يساورنا أدنى شك من أنه لا يتخذ أي إجراء دون أن يكون واثقاً من حكمه ولاسيما إذا كان يتعلق بحياة إنسان؛ وما يعزز كل ذلك هو إقرار الشاب بأنه مترجم؛ وإن ادعى تركه تلك الوظيفة.

قدته مع المجموعة إلى خلف السدة، وقتلته، وتركنا جثته من غير دفن؛ وكنا نفعل ذلك مع العملاء المحسوبين على مذهبنا إكراماً لأهلهم فقط.

بعد ثلاثة أيام علمت أن (سلام)، صديقي وزميلي المقرب في الكلية، متغيب عن الدوام، بسبب وفاة ابن عمه الذي عُثر عليه مقتولاً.

اتصلت به لأعزيه، وسألته عن مكان إقامة العزاء لكي آتي لتقديم الواجب. فأخبرني بأنه في منطقة الفضيلية.

عصر ذلك اليوم أقلَّني (منتظر) بسيارته إلى مكان العزاء. كان المطر قد توقف منذ نصف ساعة تقريباً، والجو أخذ يجنح نحو البرودة.

كان سرادق العزاء الكبير منصوباً في الشارع الذي قُطع بواسطة جذوع نخل وبراميل وكل ما من شأنه أن يعيق اقتحام السيارات المفخخة التي غالباً ما تستهدف مثل تلك التجمعات؛ وكانت هنالك مجموعة من الشبان الملتحين المرتدين قمصاناً سود، يفتشون الوافدين. توقفت يد الشاب الذي فتشني عند قبضة مسدسي الذي وضعته داخل حزامي، قريباً من خاصرتي اليسرى، وقبل أن يبادرني بطرح الأسئلة، لمحني (سلام) من بعيد وأقبل نحوي لاستقبالي ومنع الشبان من تفتيشنا. قَبَلّته معزياً، لكن عينيي تسمرتا في محجريهما عندما وقعتا على صورة المرحوم المعلقة في مقدمة الخيمة، فهي للمترجم الذي قتلته. واسمه متطابق مع ذلك الذي أدلى به خلال التحقيق.

شعرت بالانقباض وتيبست ركبتاي، فتلك هي المرة الأولى التي أحضر فيها مجلس عزاء شخص، قتلته بيدي.

سألت نفسي إن كان بوسعي الاكتفاء باستتابته، لو كنت أعلم أنه ابن عم صديقي المقرب (سلام)؟

لا أعلم لماذا أخذ حدسي ينبئني بأننا ارتكبنا خطأً فادحاً، خطأٌ لا يمكن تصحيحه أو الاعتذار عنه؛ فرغبت بالتحقق في الأمر من (سلام) بطريقة لا تثير الشبهات فسألته:

- هل من دوافع إرهابية أو عشائرية وراء الحادث؟

فقال والحيرة تعلو محياه:

- الإرهابيون مستبعدون، فهم يقتلون ضحاياهم نحراً، ولا يرمون بجثثهم خلف السدة، أما عشائرياً، فأنت تعلم أننا أناس مسالمون ولا ندين لأحد ما، بثأر.
- لربما كان لديه خلاف مالي مع أحدٍ ما، أو عمل مع قوات الاحتلال!
- كان مترجماً في السابق، ولكن الأمريكان اكتشفوا أنه يمرر معلومات مهمة عنهم لإحدى المجموعات؛ تسببت لهم بأذى كبير، فأصبح مطلوباً من قِبَلِهم، وداهموا بيته عدة مرات، ولكنه كان ينفذ منهم كل مرة.

أخذ الدم يغلي في عروقي، وارتجف جسدي كسعفة تصفعها الريح، وتفصد العرق على عارضيَّ، وودت لو أنني تمكنت من الخروج في الحال.

لاحظ (سلام) ذلك عليَّ، وسألني إن كنت مريضاً؛ فأخبرته بأني أصبت بالإنفلونزا على ما يبدو، فرجاني أن أذهب لأستريح وأعتني بنفسي، وشكرني على مواساتي له. فانتهزت الفرصة وغادرنا.

لم يكن (منتظر) متنبهاً للموضوع، وظن أني مرضت فعلاً، وطلب أن يعرضني على الطبيب؛ ولكن ليس ثمة من طبيب يشفي غليلي؛ سوى التقصي والبحث وانجلاء الحقيقة.

فعلنا ذلك وتكشفت لنا براءة الضحية، فشعرنا بتبكيت الضمير الذي لن يهدأ قبل أن نقتص من المصدر الذي تعمد تمرير تلك المعلومات غير الصحيحة، ولأن الشيخ (سجاد) كان فوق الشبهات، فلا بد وأن يكون المترجم هو المضلل، ولابد من التحقيق معه.

فاتحنا الشيخ بالموضوع، فأخذ يدفع التهمة عن المترجم وقال:

- لابد وأنه هو الآخر، استقى معلوماته من مصدر غير موثوق.
- لابد لنا إذن، من التحقيق معه لمعرفة مصدره.

– إنه من مدينة (الكوت) وهو مجاز في الوقت الحالي.

بدأ الشك يساورنا. ولكن (منتظر)، قطع عليه الطريق عندما قال له:

– الكوت ليست بعيدة. اتصل به ليأتي.

عندما أظهر الشيخ تمنعاً، تكشَّفَ لنا بوضوح أنه متورط كذلك، عندها شهر(منتظر) المسدس بوجهه وأعطاني الأصفاد لأكبله بها، ففعلت.

زمجر الشيخ وتوعد، ولكننا لم نعبأ لكلامه وأخرسته الصفعات التي انهالت عليه؛ فرضخ للأمر، واتصل بالمترجم طالباً منه القدوم إلى مكاننا.

وتبين أنه لم يكن في الكوت، فبعد نصف ساعة قَدِمَ إلينا، وكبلناه بالأصفاد مثل صاحبه.

ادعى المترجم عدم علمه بأن المغدور كان قد ترك العمل مع الامريكان، وأن أوصافه كانت مقاربة للمترجم الذي نبحث عنه، ولذلك أبلغ الشيخ عنه.

كان جوابه مقنعاً، وكدنا نصدقه، وتركه لحال سبيله؛ لولا أن(منتظر) لاحظ أن أوصاف هذا المترجم تنطبق كثيراً على المترجم المنشود الذي كنا نسعى خلفه.

فالتقطنا صورة له بكامرة الهاتف النقال، ووضعناها في ملف يحتوي على عشرات الصور لأصدقائنا، وتركنا أرملة المرحوم (مالك) تقلبها.

وعندما وقعت عيناها على صورة المترجم. صرخت صرخةً مدويةً ولطمت صدرها، وهي تصيح:

- هو. إنه هو.

وانكشف اللغز، وعرفنا من هو المتسبب، وتبقى معرفة السبب.

وبعد أن تعرضا لتعذيب عنيف، أقر المترجم بالذنب، وقال:

- كان الأمريكان يبحثون عن مطلقي الكاتيوشا وهم كانوا كثراً. غير أن مجموعة من بين هؤلاء، كانت محترفة وتصيب الأهداف بدقة بالغة وتلحق الخسائر الفادحة بهم؛ فوضع الأمريكان، جائزةً كبيرة لمن يدلي بمعلومات توصل إليهم؛ فأغريت الشيخ للعمل معنا، فوافق. كانت الخطة هي أن يزود كل مجموعة على حدة، بعدد من الصواريخ وإحداثيات لهدف وهمي، عبارة عن ساحة فارغة داخل المعسكر، وأي مجموعة تصيب الهدف بدقة بالغة، تكون هي ضالتهم المنشودة، والتي تخطئ لا يبالون بها.

- كان ذلك (مالك)! فما شأن الشاب الذي أوقعتما به، وأعدمناه؟
- كان مطلوباً للأمريكان؛ لأن المعلومات التي سربها عندما كان مترجماً، تسببت بمقتل ضابط كبير، وكان من المتعذر إلقاء القبض عليه؛ فوضعنا تلك الخطة للإيقاع به.

لم أكن أتصور أن بعض الشياطين تستطيع أن تراوغ وتتصرف بلطف، بحيث تبدو وكأنها مخلوقات ملائكية، مثلما فعل الشيخ والمترجم، واللذان كانا آخر من قتلتهم، بعدها تركت المجموعة، ولكن بقي هنالك تساؤل ينهش ضميري بلا شَفَقَة :(كم كان عدد الأبرياء، من بين الذين قتلتهم؟).

-٨-

هبطت بي الطائرة في مطار (أتاتورك) الدولي، وانزاح عن قلبي الهم الذي خلفته في نفسي دموع عمتي (كوثر)، والذي لازمني خلال فترة إقلاع الطائرة؛ كان يتوجب عليَّ نسيان تلك الحياة التي خلفتها ورائي، ما دمت أود عيش حياة مغايرة.

توجهت مباشرة إلى فندق (آديلا) القريب من مطار (كمال أتاتورك) في منطقة (شرين آفلر) والذي حجزت فيه مسبقا عن طريق الانترنيت؛ وكنت اخترته بعيداً عن تجمعات العراقيين الذين يفضلون عادة منطقة (آق سراي) لأني لم أكن راغباً بالاحتكاك بهم.

يبعد الفندق عن ميدان تقسيم ثمانية عشر كيلومتراً، ولكن طرق المواصلات بأنواعها كافة، كانت متوافرة بالقرب منه.

اتصلت بـ(سلام) في ألمانيا، فأعطاني رقم المهرب في مدينة (إزمير)، والذي اتصلت به في الحال؛ كانت لهجته سورية؛ ولكني لا أستطيع الجزم إن كان سوري الجنسية، أو من عرب (الإسكندرونة)، فأبلغني أن السفر سيكون يوم غد في الخامسة عصراً، عند مطعم (السندباد)؛ فقررت أن أمضي بقية يومي بالتعرف على معالم إسطنبول.

ذهبت عصراً إلى ميدان (تقسيم) بواسطة الحافلة، ومن هناك إلى شارع (استقلال) حيث اقتنيتُ من أحد المتاجر، حذاءً رياضياً مرناً باهض الثمن بعض الشيء؛ لكنه يتناسب مع رحلتي المقبلة، واقتنيت كذلك حقيبة ظهر صغيرة وسترة نجاة وكيس نوم، متبعاً إرشادات صديقي (سلام)؛ ثم انحدرت على طول شارع (استقلال) قاطعاً مسافة طويلة للوصول إلى منطقة (إمينونو)، حيث تجولت في (السوق المصري)، ثم صليت بعد ذلك في الجامع الجديد (يني جاميء)، بعدها تناولت عشائي عند مطعم يقدم وجبات السمك البحري، على الساحل المطل على (القرن الذهبي).

إسطنبول مدينة رائعة، تأسرك منذ الوهلة الأولى، تحتضن سحر ماضي آل عثمان، وحداثة أتاتورك؛ يقصدها السواح من كافة أرجاء العالم، الغربيون للتعرف على ملامحها، والشرقيون للتبضع من أسواقها المزدهرة العامرة، ثم حديثاً موجات عابري الحدود إلى أوروبا.

ركبت الباص عائداً إلى الفندق، وعند وصولي اتصلت بعمتي وخالي، وطمأنتهما عليَّ، وكذلك نشرت على الفيس بوك مجموعة من الصور كنت التقطتها في عدة مناطق من المدينة، ثم خلدت للنوم مبكراً استعداداً لرحلتي المقبلة.

في صبيحة اليوم التالي، أقلتني الحافلة إلى مدينة (إزمير) التي وصلتها بعد خمس ساعات من السفر عند منتصف النهار، وأمامي الكثير من الوقت إلى أن يحين الموعد مع المهرب، فقمت بجولة استطلاع في الأنحاء القريبة من المطعم؛ كنت أعي تماماً أن الحكمة تقتضي أن تكون حقيبتي خفيفة الوزن ولا سيما أني سأضطر إلى قطع مسافات طويلة سيراً على الأقدام؛ ولكني ومن باب الاحتياط اشتريت المكسرات والتين المجفف والخبز المحمص والجبن وبعض قناني الماء، رغم أن المال الذي كان بحوزتي، يكفي لشراء الطعام وإن غلا ثمنه؛ ولكن قد تصادف المرء أوقات لا يغنيه المال عن أبسط الأشياء.

عند الرابعة عصراً جلست في المطعم وتناولت الغداء؛ كانت الطاولات مكتظة من حولي بأشخاص يرومون مثلي العبور إلى اليونان، بدا ذلك واضحاً من الحقائب التي بحوزتهم. كانوا خليطاً من سوريين وعراقيين وأفغانيين وآخرين من مختلف الأعمار، بينهم مجموعة من العائلات والأطفال، أبرياء وضحايا يبحثون عن ملاذٍ آمن، ومذنبون على شاكلتي، ينشدون راحة الضمير وبداية جديدة.

بعد نصف ساعة، قدِمَ شابان سوريان في العشرين من العمر، واستأذنا مني الجلوس معي، فلم أُبدِ رفضاً؛ ولكني آثرت عدم خوض أي حديث معهما، فقد توصلت من خلال تجربتي إلى قناعة، أنه لا ينبغي كشف الأسرار أمام الغرباء أو الوثوق بهم؛ فليسَ في وسع المرء دائماً معرفة الآخرين عن طريق حديثهم وهيأتهم فقط، فلربما يكون هذان الشيئان مضللين؛ سبق وأن صادفت شباباً يافعين وجميلي المظهر من قبل، ولكنهم متورطون بأعمال إرهابية تقشعر لها الأبدان، ويندى لها الجبين.

تأخَّر المهرب عن الموعد نحو نصف ساعة، كان سورياً في الأربعين من العمر، مربوع الجسم حليق الرأس، ويضع نظّارات شمسية، ألقى علينا التحية بودٍ مبالغ فيه، ثم أطلعنا على التعليمات:

- سأسير أمامكم. وليتبعني من يرغب منكم السفر بهدوء تام، وليترك فاصلة بيني وبينه لا تقل عن عشرة أمتار، وكذلك عن بعضكم بعضاً.

بعض الحضور اشترط عليه ألّا يتخطى عدد الركاب، الأربعين في كل قارب، فوافق.

عندما نهضنا لنتبعه، فرغ المطعم من رواده تقريباً.

قادنا في مسيرة بين الأزقة، دامت زهاء ربع ساعة، لغاية بلوغنا مرأب صغير توقفت عنده ثلاث سيارات حملٍ صندوقية حُشِرنا بداخلها، وأغلق الباب علينا، وانطلقت بنا قرابة ساعتين من مسير مضنٍ، شعر خلالها بعض الركاب بالغثيان وثقلت أنفاسهم؛ بسبب نقص الاوكسجين قبل أن تتوقف عند غابة من أشجار الصنوبر قرب الشريط الساحلي للبحر الذي هبت نسائمه العليلة، ليملأ رئاتنا التي أضر بها نقص الأوكسجين في السيارة.

كانت الشمس قد انفصلت عن الأفق، وبدأ الظلام يختلط ونحن نقطع طريقاً نيسميّاً يخترق تلك الأشجار لبضع مئات من الأمتار؛ وكان يتناهى إلى أسماعنا صوت الأمواج وهي تصفع الشاطئ، قبل أن ينفتح المشهد على منظر البحر الذي بدا مهيباً وموحشاً وسط هذا الظلام الجاثم على الأرجاء؛ ثم أُمِرنا بالجلوس عند وهدة مغروسة بعشب ندي على بعد أمتار من الساحل.

كانت ثمة أضواء إنارة قصية، لربما كانت لقرية أو منتجع ساحلي، فأشخصت بصري نحوها بشكل لا إرادي. وأكاد أجزم أن الآخرين فعلوا ذات الشيء؛ قد تبدو مجرد أضواء كابية بالقدر الذي لا يمكن الانتفاع منها؛ ولكنها للقابعين وسط هذا

الظلام الحالك، كانت مدعاة للإغواء، مثل حالنا تماماً، فالجميع يبحث بطريقته الخاصة عن مساحة من الضياء تعينه على هزيمة المناطق المظلمة التي تحاصر حياته وروحه.

أحاط بنا عدد من الرجال المسلحين، الذين طلبوا منا التزام الهدوء وإسكات الأطفال والامتناع عن استخدام الهاتف النقال؛ لأن الضوء المنبعث منه قد يجلب أنظار خفر السواحل نحونا، فران صمت موحش لبضع ثوانٍ، لا يكاد يسمع فيها غير تلاطم الأمواج، ثم فلتت همسة من هنا، وصوت سعال أحدهم من هناك، فانكسر الصمت، فعاود المسلحون طلبهم لنا بالتزام الهدوء:(يڤاش، يڤاش).

كنت منقبضاً لأنهم يحملون السلاح، مظهرهم يذكرني بالحقبة الدامية التي خضتها، (هل في نيتهم الاشتباك مع خفر السواحل إذا ما كشفوا أمرنا؟).

كان الشابان السوريان اللذان شاركاني الطاولة في المطعم، جالسين بالقرب مني، وسمعت أحدهما، يسأل الآخر همساً:

- ما الذي يضمن عدم قيام المسلحين من تجريدنا من كل ما نملكه من مال؟ أليس ذلك أيسر لهم لجني المال من مخاطرة تهريبنا؟

فأجابه الآخر:

- لا أعلم!

لم أستطع منع نفسي من التدخل فهمست لهما، مُطَمْئِناً:

- لا تقلقا، فصديقي جرَّب السفر معهم. ثم إنهم لو أرادوا فعل ذلك، لما انتظروا كل هذا الوقت.

لربما كنت أحوج منهما لتقبل تلك القناعة، ولذلك تهيأتُ لمحاولة تجريد أقرب المسلحين مني من سلاحه بحركة خاطفة تعلمتها في إحدى الدورات القتالية، فلن أسمح لأي مخلوق أن يسلبني مالي، ولو كلفني ذلك حياتي.

بعد نصف ساعة رست ثلاثة قوارب بالقرب منا، واستوفى المهرب من كل فرد، الفاً ومائتي دولار قبل صعودنا، حينها فقط أدركت لماذا كانوا يحملون الأسلحة! إنه المبلغ الكبير من المال الذي كسبوه منا والذي يغري بعض العصابات للاستيلاء عليه.

ارتدينا سترات النجاة، وانطلق بنا القارب نحو جزيرة (منتليني) اليونانية؛ ولكن محرك القارب توقف بعد ثلاث ساعات من انطلاقنا، فأصيب بعض الركاب بالهلع بينما انتهزت بعض الأمهات الفرصة ليفرغ صغارهن مثاناتهم في البحر.

كنت أسير دوامة عصفت بتفكيري، حول جدوى الطريقة التي أنشدها لغسل روحي من عوالق الماضي وأدرانه، ماذا لو كانت

عمتي محقة فيما طرحته لي من خيارات لحياتي؟ العيش في العراق كان بالنسبة لي موتاً مؤكداً على دفعات، أما الموت الذي يتربص بي وسط هذه المتاهة المائية، فهو احتمال وارد؛ ولكنه لا يحجب الأمل ببلوغ ضفاف الخلاص. قطع سلسلة أفكاري، هدير المحرك بعد أن تمكن الربان من إصلاحه بعد ربع ساعة، ليبعث ضجيجه، بصيص الأمل في نفسي كرَّة أخرى.

بعد ست ساعات من الإبحار، تنفسنا الصعداء عندما وطئت أقدامنا الرمال البيضاء لشاطئ الجزيرة، وأخذنا نغذ السير صوب الجهة التي أشار علينا الربان لنسلكها.

سرت ومعي مجموعة صغيرة من بينها الشابان السوريان في المقدمة، أما العائلات والأشخاص الذين حملوا معهم حقائب ثقيلة، فقد تخلفوا عنا بمسافة كبيرة؛ أخيراً وبعد نحو نصف ساعة وصلنا إلى أقرب مركز شرطة، وقام الشرطة الخفر بتسجيل قدومنا.

لم تكن الحكومة اليونانية مضطرة للتضييق على هذا السيل البشري الزاحف نحو أراضيها، ليقينها أن لا أحد يطمع في البقاء في دولة تعصف بها أزمة اقتصادية صعبة، ولربما

كانت تحاول ابتزاز دول الاتحاد الأوربي لمنحها مزيداً من القروض.

وكل ما مطلوب من اللاجئين فعله، هو تسجيل أسمائهم عند الورود دون أن يطلبوا من أحد إبراز أي وثيقة؛ وقد نصحني(سلام) على تسجيل نفسي، كمواطن سوري. لأن الإجراءات تكون أسرع مع المواطنين القادمين من سوريا، وكان محقاً في ذلك؛ وقد فعل ذات الشيء، الكثير من الأفغان والأفارقة.

بشكل ما أو بآخر، كان السوريان على مقربة مني دائماً، قد يكون ذلك أمراً عفوياً أو أن منشأه هو الشعور بأمان أكثر عندما يكون الشخص ضمن مجموعة؛ وراقني أنهما لم يطرحا عليَّ أي نوع من الأسئلة الشخصية، وأنهما يعتقدان أني سوري بحكم إتقاني للهجة السورية.

وجهتنا التالية كانت الميناء، قطعت تذاكر سفرٍ على الباخرة التي ستقلنا إلى أثينا، وأثناء انتظارنا للصعود على متنها، جلست مع الشابين السوريين عند مقهى وطلبنا شاياً، كنت أشعر بالجوع، فأخرجت مؤنتي ودعوت الشابين لمشاركتي فاعتذرا بلطف.

تحركت بنا الباخرة وهي تشق مياه البحر التي تعكس زرقة السماء الصافية وكأنها مرآة، فتولد في النفس هدوءًا متناغماً مع حركة الباخرة التي تشبه هدهدة أم لطفلها ليغفو.

كنت أشعر بالنعاس، إلا أني غالبته للاستمتاع بمنظر البحر الخلاب وطيور النورس البيضاء التي أخذت تلاحقنا؛ لأن بعض المسافرين كانوا يرمون إليها فتات الخبز.

بعد مسير ساعة، مر بالقرب منا يخت سياحي أنيق عملاق كأنه بناية متعددة الطوابق، من تلك التي تقدم للمسافرين خدمة فندقية سبعة نجوم باهظة الثمن، لمدة شهر، يرسو خلالها عند شواطئ ثلاثين دولة، ورحت أمني نفسي، علَّني في يومٍ ما أن أصعد على متن ذلك اليخت؛ بعدها غفوت ولم أستيقظ إلا وقد بلغنا أثينا.

كنت مرهقاً ورغبت في البقاء يوماً أو يومين لأنفض عن جسدي عناء السفر، ولكن الشابين السوريين أصرا على المتابعة؛ كان عذرهما، أنه يتوجب استغلال الفرصة ما دامت متيسرة، فلربما تنقلب الأحوال على حين غرة وتضيع الفرصة منا، فآثرت مجاراتهما.

كانت وجهتنا التالية هي مدينة (سالونيك) الواقعة عند الطرف القصي من شمال اليونان، على بعد خمسمائة كيلومتر من

(أثينا). مدينة تجهل ذاكرة معظم العراقيين المارين بها، أن والي بغداد (مدحت باشا) ولِّيَ عليها كذلك، ولربما تحدث في مجالسها عن بغداد وأهلها.

توجهنا إلى محطة القطارات في (لاريسا) بسيارة أجرة تقاسمنا أجرتها نحن الثلاثة، وقطعت تذكرة على الرحلة التي ستنطلق عند التاسعة صباحاً.

كانت محطة القطارات تعج بمسافرين أغلبهم من طالبي اللجوء، تدرك ذلك عندما تطالع سحناتهم ونظراتهم المكدودة التي طبع التعب بصمته عليها، متسمرين في أماكنهم وكأن المحطة حبل يرشدهم إلى مخرج متاهة ما؛ لا شيء خارج هذه المحطة بوسعه أن يغريهم بالخروج إليه، وليس أمامهم سوى انتظار قدوم القطار.

كان أمامي ساعة ونصف، قبل أن يحين موعد السفر، فقررت التجوال في المنطقة القريبة من المحطة؛ دخلت متجراً لشراء مؤنة لرحلتي الطويلة، وبينما كنت أطوف بين رفوف الأطعمة منتقياً الجبن والزيتون والفواكه المجففة، وقع نظري على علبة مستطيلة وضِعَ بداخلها عشرون تمرة تقريباً من تمور تونس، شبيهة بتمر الزاهدي، فخفق لها قلبي وقمت بوضعها في سلتي

رغم أن سعرها يوروان! ضحكت بداخلي وقلت: (يا لهذا الوطن! تتركه خلف ظهرك، فتتفاجأ به مهاجراً معك!)

اشتريت كذلك، شريحة اتصال (فودافون) دولية لهاتفي النقال، وعبّأت رصيداً بمبلغ خمسين يورو واقتنيت شاحناً إضافياً، متبعاً إرشادات صديقي (سلام) التي دونتها على دفتر ملحوظاتي الصغير.

كان القطار الذي انطلق بنا إلى سالونيك مكتظاً بأفواج من الركاب، وخاب أملي بأن أحظى بفرصة النوم على مقعد. بقيت واقفاً عند باب القطار لغاية اللحظة التي أُغلق فيها عندما انطلق بنا، فتوافرت لي مساحة تكفي للجلوس على حقيبة سفري الصغيرة، مسنداً ظهري إلى الباب؛ كان الوضع غير مريح على الإطلاق، ورغم ذلك غططت في نوم عميق قطعه قدوم مفتش التذاكر.

توقف القطار عند المحطة التالية، ففُتِحَ الباب الذي كنت أسند ظهري إليه، وكدت أن أقع إلى الخارج لو لا أن أمسك بي الشابان السوريان.

عندما وصلت(سالونيك)، كانت جميع عضلات جسمي متيبسة وعانيت من الإرهاق الشديد. لكن الماراثون لم يتوقف عند ذاك الحد، حيث أقلتنا سيارة أجرة إلى فندق (هارا) في (أفزونوي)

التي تبعد ثمانين كيلومتراً عن سالونيك، والتي تقع عند الحدود مع جمهورية مكدونيا؛ وبلغناه عند الخامسة من عصر ذلك اليوم.

كان الفندق نزلاً ريفياً ومطعماً، يقدم خدماته بالأصل للمسافرين الذين يرغبون بأخذ قسط من الراحة والاستمتاع بمناظر ريفية جميلة وهادئة بعيداً عن صخب المدينة، ولكنه أصبح في الآونة الأخيرة مكتظاً بالمهاجرين الذين جعلوه نقطة انطلاق لاجتياز الحدود، وبالمهربين الذين اتخذوه مقراً لعقد صفقات التهريب. فآثرنا المبيت تلك الليلة في الفندق وأخذ قسط من الراحة استعداداً للمرحلة اللاحقة.

دعاني السوريّان إلى الانضمام إليهما في غرفة ثلاثية لخفض النفقات، ولكني اعتذرت لهما، وفضّلت أن أحجز غرفة مستقلة لي، وكان ذلك إجراءً احترازياً مني، لاسيما وأنا أحمل معي مبلغاً كبيراً من المال، لربما يغريهما الطمع لسرقته.

كنت أحتفظ بقسم صغير من المال في جيبي من أجل دفع النفقات، أما القسم الأكبر فأخفيته في جيب داخلي خُيط خصيصاً لهذا الغرض، خشية التعرض للسرقة.

كنت أشعر بالجوع والتعب ونقص النوم في آن واحد، فأسكتُ معدتي الخاوية أولاً من ذخيرتي التي أحملها معي، بعدها

سحبت الستائر وأغرقت الغرفة في العتمة وأويت إلى الفراش لأخذ قسطٍ من النوم.

بعد حوالي أربع ساعات، استيقظت ودخلت الحمام وعمدت إلى ملء (البانيو) بالماء الحار، واسترخيت بداخله قرابة ساعة من الزمن لأزيل الورم عن قدميَّ اللتين أضحى الحذاء ضيِّقاً عليهما.

قبل غروب شمس ذلك اليوم بقليل، اتصلت برفيقيَّ السوريين لنقصد كافيتريا الفندق لتناول فنجان قهوة، فاعتذرا مني وأخبراني أنهما عادا لتوهما من هناك.

كانت الكافتيريا على شكل بناء مستطيل بطاولاتٍ عليها أغطية بيضاء ذات أربعة مقاعدٍ على الجوانب، بينما وضعت في المنتصف طاولات بثمانية مقاعد مخصصة لتناول الطعام. وعند أحد أركان الكافيتريا وقف الساقي خلف (البار) الذي شغل مقاعده العالية، مجموعة من اليونانيين وهم يحتسون كؤوساً كبيرة من البيرة. وثمة طاولات مستديرة محاطة بكراسٍ جلدية بلون بني فاتح تتوزع عند (البار).

توجهت إلى طاولة شاغرة قرب مجموعة من الشبان تبين لاحقاً أنهم عراقيون يبلغ عددهم ستة أفراد، تبادلت معهم التحية.

بعد أن جلب النادل القهوة، أقبل نحوي رجل يوناني في منتصف العقد الرابع من العمر، يرتدي قميص بحارة قصيراً بحيث يكشف عن الجزء الأسفل من كرشه الضخم؛ كانت يداه موشومتين بكثافة حتى يخيل للناظر أنها كَمَّان حقيقيان. تحدث معي بإنكليزية ركيكة وهو يتصنع الابتسام، فهمت من كلامه أنه يعرض عليَّ أن يكون دليلي لاجتياز الحدود؛ فأومأ لي أحد العراقيين، أن أرفض طلبه، فامتثلت.

غادر البدين وقد بانت على وجهه سمات الغضب وأخذ يردد كلمات باليونانية، لابد وأنها شتائم تكال لي.

جذب الشاب الذي أومأ لي، كرسيه وانضم إلى طاولتي معرفاً عن نفسه على أنه من البصرة، ونصحني قائلاً:

- لا تستعن بالمهربين الذين سيطلبون منك مبلغاً باهضاً يصل إلى ألفي يورو، ليوصلوك إلى الحدود المقدونية التي لا تبعد عن هنا سوى كيلومترين ونصف، بينما كل ما يتوجب عليك فعله هو اتِّباع سكة القطار، ولكن يتعين عليك السير في مجموعة كبيرة من أجل الأمان. فلماذا لا تنضم إلينا؟

وافقته على ذلك، وأبلغت السوريين بالموضوع أيضاً.

قبل انبلاج فجر اليوم التالي، غادرنا الفندق ضمن المجموعة التي بلغت ثمانية عشر فرداً، مجموعة أفرادها ولسخرية القدر، نفضوا عن أرواحهم غبار الوطن الذي ضاق بهم وضاقوا به ومزقهم إلى طوائف، ووحدتهم أوهام العيش الرغيد في الغربة؛ سرنا مع سكة القطار مسترشدين بنظام الـ (الجي بي أس) وبرنامج الخرائط بدون اتصال المخزون في ذاكرة هواتفنا النقالة.

كانت النجوم الفضية المتلألئة التي تطرز السماء قد أخذت تنحسر تدريجياً، مع قدوم أول ضياء ليوم جديد، وتكشفت لنا حقول الذرة التي تنتشر على امتداد سكة القطار من الجانبين؛ ولكنها سرعان ما اختفت هي الأخرى بعد أن قطعنا نصف المسافة، لتحل محلها غابة من أشجار السنديان واللوز البري، وفجأة خرجت علينا مجموعة من قاطعي الطرق، عددهم ستة أشخاص كانوا ملثمين ومسلحين بمدىً وأحدهم يشهر مسدساً، لم يكن من العسير التعرف عليه وتشخيصه، فهو ذاته المهرب البدين الذي تحدث معنا في الفندق.

طلب منا بلغته الإنكليزية الركيكة الجلية المعنى، إفراغ جيوبنا من المال؛ كنا أكثر عدداً منهم، والكثير منا قد تهيأ وحمل معه إما سكيناً صغيرة أو عصاً؛ لكن لحظة من صمتٍ قاتلٍ

أحاطت بالمكان؛ كان الوضع مربكاً ومرعباً مع وجود فوهة مسدس مصوبة نحونا، كم سيقتل منا قبل أن تتمكن بقية المجموعة من التغلب عليهم؟ كلنا كنا ننشد حياة أفضل بعيداً عن لغة الرصاص، فأي حظ عاثر هذا الذي يضعنا أمام مرمى النيران مباشرة؟! لكن الحياة التي ننشدها لا يمكن بلوغها من غير المال الذي يريد هؤلاء سلبه منا.

كانت القلوب واجفة ولم يحرك أحد ساكناً. فتوجهت نحو البدين وكلمته برقة كي يدعنا وشأننا؛ وما إن اقتربت منه بالقدر الكافي من جانبه الأيمن، حتى باغته بضربتين مزدوجتين على ذراعه، الأولى هويت بكفي الأيمن على المسدس، وأسديت بيدي اليسرى ضربة أخرى إلى الأعلى لزند يده التي تحمل المسدس، فأصبح المسدس في يدي، وبدأت المعركة؛ فجأة تحول الخوف الذي استوطن قلوب المجموعة قبل ذلك، إلى موجة غضب عارمة، فأثخناهم ضرباً وتركناهم ممددين على الأرض من غير حراك؛ حتى إن الشاب البصري وأفراد مجموعته جردوهم من أموالهم وهواتفهم وأشيائهم الأخرى التي كانوا يحملونها، ثم تابعنا المسير منتشين بفرحة الفوز على قطاع الطرق، وتخلصت من المسدس قبل أن نقطع الحدود وندخل الأراضي المقدونية برميه وسط الأعشاب.

على امتداد البصر، ثمة تشابه كبير للأرض على جانبي الحدود، وكل شيء يشي بأن الجغرافيا قد تم التلاعب بها، بوضع خطوط وهمية قسمتها إلى دول مختلفة، فحتى اسم (مقدونيا) لم يكن محض صدفة، ولم تتمكن تلك الخطوط الوهمية محوه من ذاكرة التاريخ اليوناني.

توجهنا إلى أقرب مركز للشرطة للإبلاغ عن دخولنا، وكانت إجراءاته بسيطة وسريعة، ولكنها تأخذ بعض الوقت بسبب العدد الكبير من المهاجرين.

وقفت في طابور طويل، مخصص للسوريين فقط، وكان الشابان السوريان يقفان أمامي، تتقدمهما فتاة تحمل طفلاً صغيراً، عمره قرابة عام واحد؛ شدني إليه جماله البالغ، وكان من العسير التخمين بجنس المولود في هذا السن؛ ولكن بعض الأمهات يعمدن إلى وضع أقراط أو أطواق شعر للإناث، الأمر الذي لم أشاهده على الطفل. ولذا فقد رجحت أن يكون ذكراً.

كنت أفكر بالظروف التي دفعت بهذا الطفل ليصبح من أصغر المهاجرين سناً، وعندما وصل دور تلك الفتاة للتسجيل، سمعتها تذكر اسم (ديما دياب)، فصعقت لذكر ذلك الاسم ورحت أسأل نفسي :(أيعقل أن تكون هي ذاتها، ديما التي

أعرفها؟ أم مجرد تشابه في الأسماء؟ أيعقل أن تكون هي بشحمها ولحمها وأصادفها من بين هذه الملايين الزاحفة؟).

رحت أتلهف لكي أرى وجهها عندما تكمل الاجراءات وتستدير لأتيقن إن كانت هي أم لا.

سمعتها تسجل الصبي على أنه ابنها (حسام الدين دياب): (يا إلهي! ديما التي أعرفها، لديها أخ يدعى حسام الدين).

عندما استدارت ولاح لي وجهها، اضطرب قلبي بشدة وأخذ يخفق من غير انتظام.. إنها هي.. (ديما) التي ولجتُ عالمها قبل عامين، فأسَرَتني وغزت تفكيري.

– ٩ –

كل شيء حدث في الغوطة الشرقية.. فبعد مغادرتي المجموعة بشكل نهائي عام ٢٠٠٨، صوبت جل اهتمامي لدراستي في الكلية التي تخرجت فيها بعد عامين من ذلك، بينما آثر (منتظر) ابن خالتي الانضمام إلى تشكيل آخر.

وعندما انسحب الأمريكان من العراق، ظن أنه قد أدى ما توجب عليهم فعله، وأن الوقت قد حان؛ ليلتفت إلى حياته وعائلته.

لكن من يظن أن العاصفة انتهت أو ركنت إلى الهدوء؛ فهو واهم. فهي تركتنا لنحصي خسائرنا ونلعق جراحنا، لتضرب في مكان آخر لا غير، وهدفها هذه المرة كان سوريا.

وكأن قدرنا هو مطاردة العاصفة، إذ جاءت الدعوة كرة أخرى للقتال هناك في شهر آذار من عام ٢٠١٣.

اتصل بي (منتظر)، وأراد معرفة إن كنت مهتماً للمشاركة في الدفاع عن مرقد السيدة زينب الذي هدد التكفيريون بهدمه.

فكرت قليلاً، ثم أبديت موافقتي؛ لربما كان تأثير ما يسمى بحمى السلاح، ما يزال متجذراً فينا، وكأننا أدمنا الحروب وألفناها، علاوة على أني كنت عاطلاً عن العمل بعد أن فشلت بالحصول على وظيفة بعد تخرجي في الكلية.

كانت الطريقة الوحيدة لبلوغ سوريا هي عبر مطار طهران. حيث أقلتنا طائرة شحن عملاقة من هناك إلى مطار دمشق الدولي؛ وكنت طيلة الطريق أراجع نفسي وما أنا مقدم عليه، وفيما إن كنت على صواب أم لا؟ فلم يكن من الهين عليَّ نسيان تلك التجربة المريرة التي عشتها مع أسرتي قبل عقد من الزمن، وقد أغفر للسلطات السورية قيامها بواجبها إزاء محاولة السفر الفاشلة تلك؛ بجوازات سفرٍ مزورةٍ؛ ولكني لا أغفر لهم سرقة أموالنا وأجهزتنا النقالة.

هبطنا في مطار دمشق في ساعة متأخرة من الليل، وسط عتمة شديدة، وجو شديد البرودة، وبتنا تلك الليلة في بناية داخل المطار مع مجموعة من أفراد الجيش السوري.

وفي اليوم التالي كُلِّفنا بمهمة إحكام الطوق على الغوطة الشرقية من جهة الشرق، على طول الخط الواصل بين مطار دمشق الدولي ومطار (الضمير) العسكري عند منطقة (عدرا). فتوجهت قوتنا البالغ عددها مائة وخمسين مقاتلاً، بسيارات حمل عسكرية بحماية من عربة عسكرية نوع (بي أم بي)، عبر منطقة (حران العواميد)، قاطعين طريقاً ترابياً إلى منطقة نادي الفروسية الثاني، القريب من قرية (عتيبة) للسيطرة عليه، وطرد قوة من جبهة النصرة التي كانت تتمركز فيه.

بعد اشتباك بسيط، تم لنا ذلك ووصلنا إلى البلدات التي تقع على أطراف مدينة (النشابية) قبل أن يأمرنا القائد المسؤول عنا بالتوقف؛ لأن اقتحام تلك البلدات يتطلب قوات أكبر بكثير من عددنا الحالي، وإلى إسناد من الجو؛ الشيء الذي لم يكن من السهل الحصول عليه في ذلك الحين.

عند ذاك اكتفينا بمسك خط جبهة يبلغ طوله حوالي عشرة كيلومترات، وتموضعنا في بعض البيوت الريفية للمزارع المهجورة، المنتشرة هناك، وجعلناها مقرات لنا.

استقر فصيلي في مزرعة كبيرة يفصلها عن الشارع الرئيس، أشجار سرو عالية. وثمة طريق ترابي كان يخترق ركنها الشرقي الذي شيدت عليه أربعة بيوت متواضعة، بنيت غير متباعدة عن بعضها والتي يبدو أنها تعود إلى أفراد من ذات الأسرة المالكة للمزرعة.

كان يشغل أحد تلك البيوت، فصيل من الجيش السوري، بينما شغلنا نحن بيتين آخرين، وبقي البيت الرابع الذي يقع إلى الخلف وهو الأصغر، فارغاً.

كانت أشجار الزيتون وكروم العنب ومناحل العسل تحف بالمكان القريب من تلك البيوت، بينما ينفتح المشهد المتبقي على حقل مزروع بالقمح، متجاور مع حقول لمزارع أخرى،

بعمق ثلاثة كيلومترات، تنتهي عند مزارع تسيطر عليها جبهة النصرة؛ فكانت تلك الحقول مثل أرض حرام تفصل بين القوتين، وهي ما توجب علينا مراقبتها خلال ساعات الليل؛ خشية حدوث عملية تسلل، تقوم به القوة المعادية.

تلك الليلة أنهيت نوبتي في الخفارة وذهبت لأخلد للنوم؛ ولكن أحد زملائي في الغرفة كان يشخر بشكل لم أعهده من قبل في حياتي؛ شخيره كان أشبه بصوت محرك شاحنة كبيرة؛ فلم أتمكن من النوم رغم سطوة النعاس التي غالبتني، إلا بعد أن حان دوره في المناوبة.

في اليوم التالي قررت نقل فراشي إلى البيت المتروك.

كان البيت في حالة فوضى غير مسبوقة، فقد عُبِثَ بأغراضه وأثاثه، لربما من قِبَلِ الفصائل المسلحة، أو الفصيل السوري، بحثاً عن أموال وأشياء ثمينة لنهبها، بما يصطلح عليه محليا بـ (التعفيش)؛ لكن إحدى الغرف الصغيرة في ذلك البيت، كانت أقل تضرراً، لأنها كانت متواضعة وليس فيها ما يغري من أثاث لنهبه.

كان هنالك سرير حديدي لشخص واحد، ودُرْجٌ خشبي بالقرب منه، وخزانة صغيرة للملابس، أفرغت بالكامل من محتوياتها ورُمِيَت على أرض الغرفة.. سترات نسائية، تنانير، حمالات

صدر، ملابس داخلية، ألبوم صور، وكتب ودفاتر.. وكل الدلائل تشير إلى أن شاغلها، أنثى.

قمت بترتيب الغرفة لتكون محلاً لإقامتي، حشرت الملابس، كيفما اتفق داخل خزانة الملابس، وجمعت ألبوم الصور والكتب والدفاتر ووضعتها على الجارور، ونعمت تلك الليلة بنوم هانئ.

كان خط الجبهة هادئاً طيلة الأيام التي تلت، باستثناء تسجيل تبادلٍ متقطعٍ لإطلاق قنابر الهاون بين الطرفين، وذلك لأننا كنا ننتظر قدوم تعزيزات من الجيش السوري لمتابعة الهجوم، أما العدو، فعلى ما يبدو لم يكن يمتلك الجرأة لمهاجمتنا، واسترداد مواقعه التي خسرها.

كان الوقت يمضي ثقيلاً دون عمل شيء يذكر؛ وبسبب الضجر الشديد، تناولت ألبوم الصور الذي يعود للفتاة التي شغلت غرفتها وقمت بتصفحه.. كانت الصور في الألبوم مرتبة حسب التسلسل الزمني.. طفلة، فتاة صغيرة، ثم يافعة، وفي الآخر شابة في غاية الجمال، عيناها واسعتان بلون فيروزي براق، ووجهها مستدير بخدين متوردين ينتهي بنقرة جذابة تتوسط ذقنها.

بقيت أتأمل جمالها الآسر، ونما عندي الفضول لأعرف عنها كل شيء، وما الذي حل بها من مصير.

قَلَّبْتُ الكتب والدفاتر، كانت تخص مواضيع الاقتصاد والاسم المكتوب على جلاد الكتاب، كان (ديما سلامة دياب)، لم يكن بوسعي الجزم إن كانت هذه الكتب تعود لها أم لا! أو إن هذا هو اسمها أو اسم فتاة أخرى! ولكني ومن بين كومة الدفاتر تلك، عثرت على مفكرة بجلاد أحمر، دُونتْ فيه خواطر ومذكرات ورسوم غير محترفة بقلم الرصاص، فقمت بمطالعته.

(ذهب والدي اليوم إلى النشابية لحضور اجتماع موسع للحزب دعت إلية القيادة. عاش الرئيس القائد بشار الأسد).

(ذهبت مع والدتي وأخي (حسام الدين) إلى الشام لشراء الملابس. وبعد أن صلينا العصر في الجامع الأموي عدنا إلى المنزل. اقتنيت رواية المصابيح الزرق لحنا مينا).

(أتممت قراءة رواية المصابيح الزرق التي تصور المجتمع في مدينة اللاذقية، وسوريا إبان الحرب العالمية الثانية، وكيف كان الناس يكافحون في سبيل العيش، حيث كانت تطلى المصابيح

باللون الأزرق لتوهم الناظر بأنها منارات بعيدة محاطة بالضباب، وقد تحولت إلى مسلسل تلفزيوني، شاهدته، فيما مضى).

(حضرت عرس سلمى، ابنة خالي في عتيبة، وهناك انفردت بي، زوجة خالي أكرم جانباً، وفاتحتني برغبة هيثم ابن خالي لطلب يدي. وكانت تريد معرفة رأيي حول الموضوع، فقلت لها لن أتزوج قبل أن أدخل الجامعة وأحصل على شهادتي الجامعية).

(ظهرت نتيجة القبول في كلية الاقتصاد في جامعة دمشق.. بعد أقل من شهر سأصبح طالبة جامعية).

(اليوم هو أول يوم لي في الجامعة.. أذهلني هذا الكم من التبرج لدى الطالبات وسراويلهن تلتصق بشكل فاضح بأجسادهن وصدورهن نصف مستورة.. يخيل إلى أنهن يداومن بملابسهن الداخلية. وفي المقابل هنالك مجموعة من الفتيات المنقبات، يسترن كل ملمتر من أجسادهن فيما خلا العينين، حتى أن المرء لا يعرف مع من يتحدث. أنا مبدئي هو لا إفراط

ولا تفريط. أنا ملتزمة بأداء فروضي الدينية وحجابي بسيط وغير مبالغ فيه بالقدر الذي يرضي ربي. وأنا ارتدي السراويل ولكنها فضفاضة وأهدل قمصاني الطويلة فوقها).

(العلاقات بين الجنسين منتشرة في الكلية.. حاول الكثير إقامة علاقة معي فرفضت.. قلبي سأمنحه فقط للشخص الذي سأتزوجه وليس قبل ذلك. فعلاقات الحب لا تفضي بالضرورة إلى الزواج. وإن حدث الزواج فلربما أفل ذلك الحب وتلاشى. ولكن السؤال من الشخص الذي سأسلمه مفاتيح قلبي؟ سأكون كالنحلة الملكة يفوز بها من هو أكثر مثابرة)

(الكل هنا طلب ودي.. طلبة ومعيدون ولكني رفضتهم جميعا. آخر شخص فاتحني كان(تيم) وهو شاب من (دوما)، وسيم بشرته بيضاء مشوبة باحمرار، شعر لحيته الأشقر يضفي على وجهه إشراقة متوهجة. وهو من أسرة ميسورة الحال. متدين وخجول. كنت أشعر بنظراته الخجولة التي كان يرمقني بها، وكنت أتوقع أن يفاتحني هو الآخر، في وقت مبكر. ولربما تديّنه أو تمنعي دفعاه ليرجئ الموضوع.. لكنه فاتحني بصورة

مختلفة عن البقية، فقد استوقفني وسألني مباشرة: آنسة (ديما)! لو طلبت يدك للزواج، فهل توافقين؟
في الحقيقة تفاجأت كثيراً وارتبكت، لكني أدركت أنه يتوجب عليَّ الرد بصورة مهذبة، فقلت له :(أنت شاب لطيف ومهذب، غير أني لست مستعدة للزواج قبل إتمامي الجامعة).
فرد بثقة عالية :(سأنتظرك إذن).
لم يتطرق معي بعد ذلك، بهذا الموضوع. ولكنه كان يحوم في محيطي يراقب كل حركة أقوم بها. هل هو مثابر بما فيه الكفاية؟ لا أعلم!).

(ما يسمى بالربيع العربي يلقي بظلاله على سوريا الحبيبة.. هنالك تأليب واستهداف واضحين من قِبَلِ الغرب والكيان الصهيوني ودول رجعية.. أخشى أن يخرج الأمر عن السيطرة.. والدي غائب عنا طول الوقت، فالجهاز الحزبي مستنفر).

(قرأت رواية بطل من هذا الزمان لميخائيل ليرمنتوف، رواية في غاية الروعة. تركت قصة الفتاة الشركسية(بيلا) التي وقعت في حب الضابط الروسي في نفسي، أثراً عميقاً.

ما كان ينبغي لها أن تنشد أمامه: "شبابنا وسيمون وأثوابهم مطرزة بالفضة، لكن الضابط الروسي الشاب أجمل منهم وأبهى، كأنه بينهم شجرة حور، لكنه لن يكبر في بستاننا ولن يزهر").

(تفاقمت الأحداث، وأصبحت مقلقة بعد مقتل بعض المتظاهرين. الحكومة تنفي أن تكون مسؤولة عن إطلاق النار.. أميل إلى تصديق الحكومة.. فجهات عديدة لها أيادٍ خفية لتأجيج الموقف).

(انتشر اليوم في الكلية خبر مقتل شقيق (تيم) الأكبر، في تظاهرات (دوما) يوم أمس.. ما يعزز تلك الشائعات، هو غيابه عن الدوام اليوم، ويوم أمس).

(لم أذهب اليوم إلى الكلية.. الطريق غير آمن. فقد انتشرت مجاميع مسلحة تقوم بقتل رجال الأمن الذين بقوا على ولائهم للدولة.. أما الباقون فقد انشقوا وانضموا لما يسمى بالجيش الحر الذي رفع علم حقبة الانتداب الفرنسي).

(اتصل والدي وذكر أنهم محاصرون داخل المقر الحزبي، ولكنه طمأننا بأنهم يمتلكون القوة اللازمة لصد أي تعرض. قلقي شديد عليه).

(انقطع الاتصال مع والدي ونحن قلقون عليه.. لا أستطيع تحمل فكرة أن مكروهاً قد أصابه.. أخي (حسام) أراد الذهاب ليتقصى أخبار أبي، ولكننا منعناه خشية أن يصيبه مكروه هو الآخر).

(المعركة تسير لصالح الفصائل المسلحة الذين يرفعون رايات بالأسود والأبيض تحمل شعار لا إله إلا الله. سقطت البلدات المحيطة بنا بيد المسلحين. وسمعت أن (تيم) يقود إحدى تلك المجاميع التي ترفع رايات إسلامية.. لطالما كانت له ميول نحو الإسلام المتشدد، ولكني متيقنة من أنه يفعل ذلك بدافع الانتقام والثأر لمقتل أخيه).

(المسلحون يقتربون منا.. قررنا ترك القرية.. سنذهب غداً إلى مطار دمشق الدولي ومن هناك سيتم نقلنا إلى المناطق التي ما زالت تحت سيطرة الحكومة، حيث سيتم إيواؤنا في

المدارس.. أليس من المضحك المبكي أن نترك بيوتنا وضيعاتنا ونصبح لاجئين داخل الوطن؟).

كانت تلك آخر سطور كتبتها. ويعود تأريخ كتابتها عند نهاية تشرين الأول (أكتوبر) من العام الماضي أي قبل خمسة أشهر من مجيئنا إلى هنا.

شعرت فجأة بتوقد شيء ما، في داخلي، يتخطى الفضول لمعرفة مصير تلك الفتاة. شعرت برغبة ذلك النمر المأسور منذ سبعة أعوام، لينعتق من سجنه.

التفكير بها، استحوذ عليَّ كالحمى، وأصبح شغلي الشاغل. أعدت قراءة تلك المفكرة مرات ومرات، علّي أكتشف ما بين السطور ما يقودني لمعرفة شيء جديد عنها، وأخذت أبحث في ثنايا الغرفة وزواياها، كما يفعل المحققون عند التحري عن جريمة قتل؛ ولكن دون جدوى. دققت في كل شيء. عرفت مقاس ملابسها وأحذيتها، لونها المفضل، عطرها المميز، كل شيء عنها، عدا مصيرها.

بعد عدة أيام، لامست أناملي صدفة، شيئاً صغيراً للغاية، في قعر مزهرية زجاجية كنت أحفظ فيها خاتمي وساعتي؛ كانت رقاقة ذاكرة هاتف نقال، خزن فيه مقطع فيديو لحفل حنة

(سلمى) ابنة خالتها، وتظهر هي في المقطع لثوانٍ معدودة فقط؛ يدعوها المصور باسمها ـ ديما ـ فتلتفت نحوه وتبتسم كملاك. كان مشهداً صغيراً ولكنه وعلى خلاف الصور نابض بالحياة.

بقيت أعيد المشهد مرات ومرات، ويخيل لي عند كل مشاهدة جديدة؛ رؤية أشياءً مخبوءة، تتخطى معانيها المجردة، وكان ذهني يتفتق بفكرة ألا شيء في هذا الكون يحدث عبثاً، فابتسامتها لم تكن موجهة لأي شخص آخر سواي، وفي عمق ذلك الصفاء الذي ينبثق من عينيها، كانت تفتح لي مستودعات قلبها.

وشيئاً فشيئاً ألفيت نفسي مهووساً بها؛ كنت أمرر يدي وأصابعي على عطورها، وأصباغ أظفارها وعلى فرشاة شعرها، فيخيل لي أنني أتحسس أناملها وأمسد شعرها. وكأن ثمة تواصل بيني وبينها، لابد وأنه امتداد لحياة سابقة عشناها في عالم الذر.

أغرمت بها وكنت لأعطي نصف عمري من أجل الحصول على معلومة تقودني إليها.

أضحيت شارد الذهن ومنزوياً في غرفتي التي لم أعد أخرج منها إلا لتناول الطعام أو لمسك الخفارات. كنت أفضِّل بقائي مع ملاكي (ديما)، على مخالطة رفاقي.

كان يوما مشرقاً من أيام الربيع، ونسائمه العذبة تفوح بعطر الأزهار المتفتحة حديثاً، والهدوء يحف بالمكان، ثم فجأة، يقطعه صوت إطلاقات نارية متقطعة؛ فقفزت من سريري وارتديت حذائي على وجه السرعة، وخرجت حاملاً بندقيتي؛ وتبين أن الرمي كان لرفاقي الذين يتسلون بإظهار مهاراتهم في التسديد، بينما جلس(منتظر) على دكة حجرية وهو يدخن (نارجيلته)، فعدت أدراجي إلى غرفتي.

لمحني(منتظر) الذي لم يعجبه انعزالي، فتبعني إلى الغرفة، وسألني إن كنت أشكو من خطب ما أو ألَمَ بي مرض.

فنفيت ذلك. فقال لي:

- إذن، لابد وأن يكون الحنين إلى الوطن هو السبب. لا أكتمك السر، أنا نفسي بدأت مؤخراً أعاني بسببه كثيراً.

تنهد وتابع:

- الأولاد.. آهٍ كم اشتقت إليهم.

كان(منتظر) في الخامسة والثلاثين من عمره، متزوج وله خمسة أولاد. فتبسمت وقلت بخبث:

- الأولاد أم أمهم؟

فضحك، وقال:

- الأولاد وأمهم، أحيانا أحسدك لأن حملك خفيف؛ ولكن ينبغي عليك أن تتأهل، فالزواج نصف الدين. صدقني ليس هنالك شيء أجمل وأبهج من أن تحف بك زوجة تفهمك وتؤازرك وأولاد رائعون؛ تأْمَل أن ينعموا بحياة أفضل من تلك التي عشتها أنت، ويصبحون هُم هدفك في الحياة. سنبحث لك عن زوجة مناسبة حال عودتنا، هذه المرة لن أدعك وشأنك.

سرح خيالي بعيداً، وبشكل عفوي تمثلت لي(ديما) فندت عني ابتسامة، لمحها على وجهي، فتبسم بدوره، وربت على كتفي وقال:

- نعم، تبسم هكذا، فالعمر قصير، ولا ينبغي أن نمضيه في الأحزان.

كان واجبنا في سوريا قد أزِفتْ نهايته وأُبلِغنا أننا سنعود إلى الوطن في غضون عشرة أيام، وتوجب عليَّ بحكم الأمانة؛ التخلي عن المفكرة الحمراء وألبوم الصور، وبالنسبة لي، فإن

هذا يشبه التخلي عن (ديما)، وهو أمر ليس بالهين عليَّ، لذا قمت بتصوير صفحاتها، صفحة صفحة، بهاتفي النقال واستنسخت مقطع الفيديو أيضاً. ولأني متيقن أن مكاني سيشغله أخرون من بعدي، ولربما سيعبثون بممتلكاتها وأشيائها، لذا قررت أن أفوِّت عليهم تلك الفرصة، فقمت بجمعها ووضعها في صندوق خشبي وطمرتها داخل قفص متروك للدواجن، وكتبت على باب دولابها من الداخل ملاحظة بما فعلت؛ على أمل ألّا يقرأ تلك الملاحظة شخص سواها، أو أن يطمع أحد ما، بدولابها البائس ويصادره.

كان الجميع يشعر بحيوية كبيرة مع اقتراب موعد عودتنا الذي لم يتبق عليه، سوى يومين اثنين، عندما سقطت بالقرب من منتظر، قذيفة هاون أطلقها المسلحون، فأصابته شظية صغيرة في رأسه وقضى في الحال؛ (العمر قصير، ولا ينبغي أن نمضيه في الأحزان.) هل كانت تلك، مجرد حكمة منك يا منتظر! أم هي نبوءة؟

يومان فقط، كانا يفصلانه عن لقاء الأولاد وأمهم، كم هو مؤلم وقاسٍ هذا العالم الذي نعيش فيه!

كانت تلك آخر معاركي فقد ودعت سلاحي إلى الأبد بعد أن أثخنتني الحروب بالجراح ونزفتُ آخر عزيز عندي.

لكن تجارب الحياة المريرة لم تستطع ترويضي كما فَعَلَتْ من قبل مع والدي، لأغدو كحيوانٍ منزلي أليف. كنت أحلم بحدوث انعطافة ما في حياتي، تتحسن فيها أحوالي، وتمنحني الحياة ما لم تمنحه للكثيرين من أبناء جيلي؛ حلم من المؤكد أنه راود غيري لكنهم استنزفوا سني عمرهم، دون أن يدركوه.

-١٠-

أنهت (ديما) إجراءاتها مع الشرطة المقدونية، وبقيت عيناي تتابعانها كي لا أفقدها بين الجموع التي بدأت بالازدياد ساعة بعد ساعة. ذَهَبَتْ وجلست تحت ظلال شجرة عملاقة، بالقرب من عائلة. هل هم أهلها؟ لا أظن ذلك، فرب العائلة أصغر من أن يكون والدها، وتيقنت أن العائلة لا تمت لها بأي صلة، عندما بدأ أفرادها بتناول الطعام دون أن يدعوها لمشاركتهم.

أخرجَتْ منديلاً وغطت به صدرها وألقمت الطفل حلمتها.

عندما أتممتُ إجراءات التسجيل، توجهت ناحيتها وجلست على مقربة منها. كنت مرتبكاً ولم تكن لدي خطط محددة للتواصل معها. رحت أختلس النظر إليها لأرى هل تتطابق صورتها مع تلك التي تحتفظ بها ذاكرتي منذ عامين، فوجدتها أبهى جمالاً وأكثر إشراقاً، ولكنها بدت هزيلة بعض الشيء. سحبَتْ حلمتها من فم الرضيع وأرجعت ثديها إلى داخل قميصها، لكن الطفل بدا غير راضٍ بذلك، فشرع في البكاء.

أخرجتُ قنينة ماء ومددت ذراعي صوبها وقلت لها باللهجة السورية الشامية:

- يا آنسة.. هذه للطفل.

نظرت صوبي وتفحصتني بنظرة ثاقبة قبل أن تأخذها مني وهي تشكرني. هدأ الطفل وكف عن البكاء عندما سقته جرعة الماء عن طريق الرضاعة. فسألتها عن وجهتها، فنظرت إلى شزرا كأنهاً لبؤة تدافع عن شبلها، وقالت:

- اسمع إيها الشاب، إن كنت تحاول التودد إلى بإعطائي قنينة ماء، فذلك أسلوب رخيص وأفضِّل الموت عطشاً عليه.
- عذراً لا تؤاخذيني، لم يكن هذا قصدي، كل ما في الأمر، نحن ثلاثة شبان، ونبحث عن شخص رابع ليشاركنا أجرة التكسي. وظننت أن ذلك سيكون مناسباً لك أيضاً.
- ومن قال لك إني أوافق على الركوب مع شبان غرباء؟!

عندما قطعت على طريق الحوار معها، قررت الدخول مباشرة.

- لست غريباً كلياً، لربما أنت لا تعرفيني، ولكني أعرفك. أنت (ديما دياب) من الغوطة الشرقية، من قرية دياب، قرب نادي الفروسية الثاني.
- ههه، خدعة قديمة أيها الشاب، لابد وأنك سمعتني وأنا أذكر اسمي للشرطة المقدونية.

- حسناً، وكيف تسنى لي معرفة اسم قريتك؟
- لقب أسرتي الذي سمعتني أذكره للشرطة هو (دياب)، على اسم قريتنا الغنية عن التعريف. (اتركني لحالي دخيل ألّا.. يلي فيني مكفيني).

جملتها الأخيرة كانت تشير بوضوح إلى أنها شخص واجه متاعباً جمة، ومجرد كونها تسافر وحيدة مع طفل كافٍ لتفسير ذلك. لم يكن بوسعي ترك الأمر ينتهي عند هذه النقطة فقررت الاستمرار وقلت:

- حسناً، وماذا عن كلية الاقتصاد، وأخيك (حسام الدين) الذي سميتِ هذا الطفل على اسمه، وزميلك في الكلية (تيم). هل ذَكرْتِهم للشرطة أيضاً.

نظرت نحوي بذهول واضح، وكأنها ما بين مصدقة ومشككة في أن تصادف في هذا العالم الغريب القاسي شخصاً يعرفها؟

- من أنت؟ ومن أين تعرفني؟ هل أنت صديق لشقيقي؟ أم قريب لتيم؟ أو من طلبة كليتي؟
- اسمي (حسن)، وسأخبرك لاحقاً بكل شيء، ولكن قبل ذلك، أنا لا يرضيني أن تجوبي آفاق الأرض وحدك مع طفلك هذا، ضعي ثقتك بالله وبي وسأكون خير عون لك.

- ولماذا لا تخبرني الآن؟ لابد وأنك تخفي سراً وراء ذلك.
- بوسعي أن أختلق لك أي شيء تصدقيني به بسهولة، ولكني لا أرغب بذلك. جربيني أولاً وعندما تثقين بي سأخبرك.
- ولماذا تفعل معي ذلك؟ بينما الكل تقريباً يطمح للنيل من.. أنت تعلم ماذا أقصد.
- لدي أسبابي الخاصة التي سأخبرك عنها في الوقت المناسب كما أخبرتك.

بدا عليها وكأنها اقتنعت بكلامي، لربما شغلها التفكير بهويتي والأسباب التي تدفعني لمساعدتها عن الانطباع السائد بأن جميع الذكور سَيئون ولا يمكن الوثوق بهم في عالم يدير أقرب الناس إليها ظهره.

سألتني:

- ومن دون مقابل؟

قالت جملتها الأخيرة، وهي تمط شفتيها مشككة:

- إن بدر مني أي سلوك منحرف، فلك أن تفارقيني حينها، كما فعل العبد الصالح مع سيدنا موسى؛ فقبل كل شيء هذه بلاد حرة وأنت حرة في فعل أي شيء

يناسبك، فإن وافقتِ، فسأتكفل برعايتك منذ هذه اللحظة ولغاية بلوغنا وجهتنا.

كانت متعبة ومستنزفة، ثم، وعلى نحوٍ غير متوقع، تهبط عليها من السماء يد تُقدم لها المساعدة، فهل من الحكمة أن ترفض ذلك؟

أومأت برأسها موافقة، فأفرغت كل ما تحتويه حقيبتي من طعام وقدمته لها، كانت تتضور جوعاً وأخذت تأكل بنهم. ويبدو عليها، أنها لم تتناول طعاماً منذ فترة.

بعد أن أنهت الأكل، سألتها:

- حسناً، كان آخر عهدي بك عندما تقدمت قوات المعارضة إلى قريتكم، فهل تمكنتم من الوصول إلى المطار؟

كان سؤالي بدافع من رغبتي لمعرفة تفاصيل ما جرى لها، ولكني أيضاً رغبت أن أثبت لها عمق معرفتي بها. بقت صامتة لبرهة، ربما لتقلب ذاكرتها بحثاً عن أي شيء علق بها، يربطه بي، ثم قالت:

- ألا تخبرني بحق الله، كيف تعرف كل تلك التفاصيل عني!
- اطمئني سأخبرك بكل شيء، ولكن ليس الآن.

ولكي أخلط الأوراق عليها قليلا تابعت قائلا:

- وبيت خالك (أكرم)، ماذا حل بهم؟

وكان لسؤالي عن أسرة خالها وقع مهدئ عليها، فأطلقت تنهيدة وجع وألم، وقالت:

- حسنا، سأروي لك ذلك مع أنه يقلب على المواجع.

خرجنا تلك الليلة على جناح السرعة من القرية متجهين نحو المطار. كانت السيارة مع والدي الذي انقطعت أخباره عنا، لذا ركبنا الجرار الذي قاده أخي، ولكن ولسوء حظنا كانت جميع البلدات من حولنا قد تداعت الواحدة تلو الأخرى وسيطر عليها المسلحون. وعندما بلغنا بلدة عتيبة اعترضنا حاجز للمسلحين، وكان أحدهم يعرفنا، فهو جار لخالي (أكرم). فاستبشرنا به خيراً، ولكنه أظهر وضاعته وأخبر المسلحين، أن والدي (شبيح) من أزلام النظام. وعلى الفور أعدموا أخي المسكين من دون ذنب اقترفه، أما أنا وأمي فقد تعرضنا للضرب المبرح، وكادوا أن يغتصبوني لولا أن القدر ساق لي (تيم)، أو هذا ما ظننته في البداية؛ فقد تبين أنه كان على رأس المجموعة التي دخلت قريتنا. وكانت تحدوه رغبة

محمومة للعثور علي. وعندما علم بتوجهي صوب المطار، لحق بي وخلصني من الاغتصاب الجماعي، لكنه في الواقع فعل ذلك ليستأثر بي لنفسه. أما أمي المسكينة، فقد توفيت في اليوم التالي بسبب سكتة دماغية من جراء الضرب الذي تعرضت له؛ عرض علينن (تيم) الزواج منه، فقلت في نفسي:(أن أكون في عصمة رجل أعرفه ويعرفني، خير من أن أقع في أيدي الوحوش الذين لن يتوانوا عن اغتصابي فرداً فرداً. وكانوا يقومون بذلك فعلاً مع بقية الفتيات، وأيضاً لأنه لم يبقَ لديَّ خيار آخر بعد ورود خبر مقتل والدي ونزوح بقية أقاربي. لقد تمثلت نصب عيني قصة قرأتها عن فتاة شركسية مسلمة تدعى(بيلا) وقعت بيد ضابط روسي مسيحي، وقلت في نفسي أنا مثلك يا (بيلا) أسيرته، فهو يستطيع فعل أي شيء بخلاف إرادتي، فلأوافق على الزواج منه، فذلك أفضل لي، فعلى الأقل هو على ديني. تزوجنا وأخذني للعيش معه في(دوما)، لكنه تعامل معي كشخص مصاب بالفصام؛ فتارةً يرى فيَّ الفتاة التي يكن لها حباً جماً، وتارة أخرى يرى فيَّ ابنة رجل من

رجالات النظام الذين قتلوا أخاه، وتراه أحياناً يتصرف بهدوء واتزان ويتودد إلى بكلام رقيق وهو يضمني إلى صدره ويمسد شعري، ثم فجأة يضغط بذراعه التي تطوق جسدي فأشعر بها وهي تكاد تسحق أضلعي، وتبدأ أصابعه التي تمسد شعري بشده بعنف، ولا يتركني إلا بعد أن يعلو صراخي من الألم. فيؤوب إلى رشده كشخص خرج من غيبوبة، فيعتذر.

كان الطفل غافيا في حجرها رغم الجلبة التي تحدث من حولنا، فقاطعت حديثها عارضاً عليها أن أفترش له كيس نومي، فردت:

- كلا أشكرك، سيصحو في الحال إن غادر حضني. لأكمل لك بقية القصة، أمضينا في (دوما) بضعه أشهر استرد خلالها الجيش العربي السوري قريتنا ثانية، ووددت لو كان بوسعي الإفلات من قبضته والعودة إلى منزلي أو أن يتقدم الجيش ويسترد (دوما)؛ ولكن ذلك لم يحصل واكتفى الجيش بحصار (الغوطة).

كان الحصار شديد الوطأة على السكان العاديين، أما بالنسبة لـ(تيم) وأمثاله من قادة المجاميع، فكان مصدراً

لجني الثروة، بعد احتكارهم لمواد الإغاثة؛ ولكن كل ذلك لم يعدل رغبة (تيم) لإراقة الدماء؛ فكان ينتقل من فصيل متطرف لآخر أشد تطرفاً، حتى أضحى وحشاً كاسراً يتلذذ بقطع الرؤوس؛ ثم انتقلنا إلى حلب، وذات يوم حدث اقتتال عنيف بين جبهة النصرة التي انضم لها (تيم) وبين داعش، وكانت الغلبة في النهاية لداعش بعد أن قتل معظم رجال جيش النصرة ومن بينهم (تيم)، وأسروا الباقين. وهكذا وقعت في قبضة التنظيم وحُجِرَ علي مع أخريات في أحد البيوت تحت إشراف نساء دولة الخلافة (داعش). وأخبرننا بأنه لا يمكننا مبارحة المكان لأننا أرامل من دون أزواج؛ ولكن مع انقضاء مدة العدة الشرعية، سيكون بوسعنا الزواج من المجاهدين وعيش حياة طبيعية؛ ولابد وأن إحدى المشرفات وصفتني لأحد الأمراء، ويدعى (أبو طلحة العفري)، فطلب يدي للزواج، ووافقت على أمل أن أتمكن من الهروب لاحقاً؛ كان الرجل شبقاً لأعلى درجة، وكان متزوجاً من امرأتين، قتلت إحداهما لاحقاً بقصف مدفعي، كذلك لديه سبية إيزيدية من منطقة (الشيخان) في العراق؛ وبعد مدة وجيزة، تفاجأت من

أني أصبحت حاملاً منه؛ فذلك يعني أنه إذا ما قدر الله لي الفكاك من رق هذا الوحش، فإن الطفل سيكون كالوسم الذي يُجرى على جباه العبيد، باقٍ ولا يمكن محوه، وكذلك سيصَّعبُ عليَّ أي عملية هروب محتملة؛ وعندما أصبحت في الشهور الأخيرة للحمل، لم يكف ذلك الوحش عن وطئي رغم آلامي ومعاناتي التي تجرعتها بروح محطمة ومخذولة، ولكنه لم يكترث أو يبالي، ولربما جعله تألمي أكثر انتشاءً.

أثناء ذلك نشأت بيني وبين السبية الإيزيدية وتدعى (نريمان)، علاقة وطيدة. كانت من أسرة ميسورة الحال ولها أخ متنفذ في كردستان، لم يترك وسيلة إلا وطرقها للعثور عليها وتخليصها من يد داعش؛ وفي النهاية تمكن من معرفة مكانها، واتفق مع أحد المهربين لإنقاذها مقابل عشرة آلاف دولار.

فأغرى ذلك المهرب (أبو طلحة)، ليبيعه (نريمان) بسبعة آلاف دولار، فوافق.

وكنت قد اتفقت مع (نريمان) على أن تكلم المهرب بشأني أيضاً، حتى نرحل معاً، لكنه رفض طلبي؛ قائلاً (إن ذلك الأمر فيه مخاطرة كبيرة).

فسألتها مستغرباً:

- أين وجه المخاطرة وهو مهرب؟
- (نريمان) أيضاً وجهت له ذات السؤال، فرد أنه يستطيع اجتياز معظم الحواجز معها، بوصفها سبية يملكها، أما أنا فامرأة أحد أمراء الحرب والذي سيبَّلغ جميع الحواجز حالما يعرف بهروبي. في النهاية لم يصمد أمام إغراء المال، عندما عرضت له مبلغ ثلاثة آلاف دولار ليفعل ذلك.
- ومن أين لك ذلك المبلغ؟
- كنت الزوجة الأثيرة لـ (أبو طلحة) ويحتفظ بخزنته في بيتي، فانتظرت لغاية أن استسلم للنوم، وأخذت مبلغ السبعة آلاف دولار التي حصل عليها من المهرب والتحقت بـ(نريمان) التي قطعت لي عهداً بأنها ستنتظرني لتأخذني معها حتى لو لم أتمكن من الحصول على المال، بعد أن أقنعت المهرب بأن أخاها سيدفع له عندما يصلون إليه، أوصلنا المهرب إلى تركيا بمشقة بالغة عبر طرق وعرة ولا سيما أني كنت في شهري الأخير من الحمل، وهناك عرضت عليَّ (نريمان) أن أذهب لأعيش معها عند أسرتها،

ولكني فضَّلتُ البحث عن أقربائي في المخيمات وأنضم إليهم، ولكن سعيي خاب لأني لم أعثر سوى على عائلة تربطني معهم صلة نسب بعيد في أحد المخيمات، أرشدوني إلى التسجيل في مركز اللاجئين وساعدوني في وضع مولودي. بعد مرور عام أخذَتْ النقود التي بقيت بحوزتي بالتناقص مع عدم وجود فرصة للعثور على عمل في تركيا، بسبب انشغالي بتربية الطفل. كانت مخيمات اللاجئين بائسة، والفقر والجوع فيها يجبر الناس على تزويج بناتهم القاصرات من الخليجيين، أو بيع كُلْياتهم من أجل المال، لذا قررت الهجرة، حالي حال الكثيرين قبل أن أصل إلى ذات المصير البائس، وهكذا قطعت الطريق إلى اليونان ثم مقدونيا. كانت النقود تتناقص بشكل سريع، فأخذت بتقنين الصرف ولم أعد أتناول سوى وجبة واحدة في اليوم؛ ولولا الطفل الذي ما زال يرضع لصِمْتُ، لكي تكفيني النقود لأصل ألمانيا.

- كم تبقى لديك من مال؟
- أقل من سبعمائة دولار.

- غير كافية للوصول إلى هناك، فكيف كنت ستتدبرين أمرك من غير نقود؟ الصوم وحده غير كافٍ؛ لربما وفر لك بضعة دولارات.
- هل نسيت أن الله موجود؛ كنت أدعوه ليسر لي وصولي، وكنت متيقنة من أنه لن يخذلني. فكما أنجاني من الإرهابيين من قَبْل، فإنه سيمكنني حتماً من بلوغ ألمانيا.

كانت تبدو متماسكة، وتتصرف بحنكة ونضج رغم الجراح التي خلفتها مرارة الأعوام الثلاثة الماضية على قلبها الصغير.

فقلت لها مطمئناً:

- ما دامت ثقتك بالله عالية، فاعلمي أن الله سخر لك أحد عباده ليساعدك؛ لا تشغلي بالك بالنقود بعد الآن، لا أدعي أني أمتلك الكثير، ولكن بحوزتي ما يكفيني ويكفيك.

-١١-

كان علينا بلوغ صربيا أولاً، ومن هناك إلى هنغاريا وهي العقبة الأصعب التي حالما نصلها؛ ستتفتح لنا آفاق أوروبا، ثم أخيراً النمسا. استأجرنا سيارة تكسي بمئة يورو، لتقللنا إلى الحدود الصربية، تقاسمت أجرتها مع الشابين السوريين الذين أخبرتهما أن(ديما) قريبة لي، وبعد وصولنا الحدود، تابعنا السير مع سكة القطار.

كنت أتناوب مع (ديما) على حمل الطفل وألتَفِتُ إليها بين الحين والأخر وأسألها إن كانت تشعر بالتعب! فتجيبني بالنفي في كل مرة، كانت مثابرة بشكل لا يمكن وصفه؛ لأني شعرت حقاً بالتعب، أما هي فلا.

بعد ثلاث ساعات صادفتنا أول قرية في صربيا؛ كان سكانها من المسلمين المتعاطفين مع المهاجرين، وفيها جامع صغير. بقينا هناك إلى الظهر حيث صلينا كل على حدة وذهبت معها إلى مطعم كان صاحبه ألباني يقدم أطباقاً من (البورگ) بالجبن، ثم عرجنا على متجر في القرية وجعلتها تحدد شراء ما تراه مناسباً لنا نحن الثلاثة، ثم تابعنا السير إلى مركز الشرطة لتسجيل دخولنا.

بعد ذلك ركبنا حافلة أوصلتنا إلى العاصمة بلغراد، المدينة الرائعة القابعة عند ملتقى نهر(الدانوب) العظيم بنهر (سافا)؛ تتقاسم أبنيتها جمال الحداثة وبصمة فن الحقبة الشيوعية وسحر الطراز الفيكتوري وعبق تاريخ الدولة العثمانية.

كنت مرهقاً ولم أحظَ بنوم مريح منذ فندق(هارا)، فاقترحت عليهم الذهاب إلى فندق لنأخذ قسطاً من الراحة ونبيت فيه، فرفض الشابان السوريان اقتراحي، مرددين تبريرهم المأثور (التأخير ليس في صالحنا).

لربما كان ما يقولانه صائباً، أو لربما أنهما يتبعان منهجاً متقشفاً بسبب ضيق ذات اليد؛ أما هي، فلم تُبدي معارضتها ولاسيما أنها لم تحظَ على الإطلاق بفرصة النوم على وسادة منذ أن بدأت رحلتها. إذ كانت تعمد إلى السفر ليلاً، لتتمكن من النوم في الحافلات التي تقلها، هذا فضلاً عن الجهد المضاعف الذي كانت تبذله، والذي يتوزع بين قطع مسافات كبيرة سيراً على الأقدام، وبين العناية بطفلها الرضيع، فهو على الرغم من كونه خفيف الوزن، إلا أن الوضع الذي يتوجب فيه حمله، غير مريح البتة.

كان ذلك آخر العهد لي بالشابين. ولا أنكر أني كنت مسروراً بانفصالهما عنا، وكأني تحررت من عبء ثقيل.

بحثنا في خرائط جوجل عن فندق يكون سعره مناسباً وقريباً من مركز المدينة ومحطة القطارات، فعثرنا على فندق (ماديسون)الذي تبلغ أجرة الغرفة بسريرين فيه، خمسين دولاراً لليلة الواحدة.

خيرتها قبل الدخول إليه، قائلاً:

- إن شئتِ، استأجرت غرفتين منفصلتين، وإن كلفني ذلك مبلغاً مضاعفاً، وأما إن كنت تثقين بي، فنستأجر غرفة واحدة نتقاسمها معاً لتقليص النفقات.

تريَّثَتْ قليلاً لتُقَلِّبَ عرضي في فكرها، ثم حزمت أمرها، وقالت:

- لا بأس، لدي ثقة بك، وكذلك سيكون امتحاناً للثقة الممنوحة لك.

لا يمكنني بأي حال من الأحوال أن أنكر أن بضعة دولارات إضافية لم تكن لتشكل فرقاً بالنسبة لوضعي المادي، وأن طرحي الذي يتسم بالبراءة والوقار، كان مدفوعاً برغبة غير بريئة تتأجج بداخلي رغم محاولاتي المستميتة لإخمادها. كنت متصالحاً مع نفسي ورغباتي، ففي نهاية المطاف، ما الدافع وراء كل الذي أفعله من أجلها؟ أليس هو بلوغ تلك النتيجة المحتومة التي مارسها البشر منذ آدم وحواء؟ ولكني لست ذلك

النوع من الرجال الذين يستغلون ضعف المرأة لاستعبادها جنسياً، وإلا فما هو الفرق بيني وبين (تيم) أو (أبو طلحة العفري)؟ كانت غايتي هي الفوز بقلبها، والقلب هو مفتاح جميع الأبواب الموصدة، بل هو عتبة الحب وغايته.

تركتها تجلس في صالة الاستقبال ريثما أنهي إجراءات الحجز، خشية أن تكتشف أني عراقي من خلال جواز سفري.

في الغرفة تركتها تدخل الحمام قبلي مع صغيرها، وارتميت على السرير المزدوج الوثير لأريح جسدي المتعب من ماراثون المشي وركوب الحافلات.

رحت أحلق في فضاءات أحلامي المستثارة، وأمانيي المستعرة إلى الحدود القصوى؛ فجذبت الوسادة واحتضنتها، وتخيلتها تشاطرني السرير، غارقين معاً في لجة الحب، وأطفئ جذوة روحي المخبوءة تحت رماد تسعة أعوام، نعم، تسعة أعوام لم يطلق بركاني حممه، سوى في أحلامي التي لم تغادر (ليديا، ريم)، إلا قبل عامين إلى مرفأ (ديما) رغم أني لم أتذوق حلاوة جسدها كما هو الحال مع الأخريين، فعالم الأحلام يتشكل في العقل الباطن بشكل مختلف عن الواقع، كـ(الكولاج)، جسد(ريم)، جموح (ليديا)، ووجه (ديما). (ديما) التي لم يغادر وجهها مخيلتي منذ عامين، ها هي أمامي بشحمها ولحمها، لا

يفصلني عن غزو جسدها العاري، سوى ثلاث خطوات وباب الحمام.

أعادني خروجها من الحمام من عالم الخيال إلى عالم الحقيقة.

كان جمالها آسراً في منامتها التي تبرز مفاتن جسدها وانعطافاته عند الصدر والوركين؛ وشعرت بروحها تفيض سعادة، لربما لإحساسها باسترجاع آدميتها بعد قرابة ثلاثة أعوام من المأساة والاذلال.

تنبهت إلى أنها بقيت واقفة محتارة لأني كنت أشغل السرير فقمت على الفور، وقلت لها:

– سأترك لكما السرير المزدوج، أما أنا فسأنام على الأرض.

ثم دخلتُ الحمام ومارست طقوسي بالاسترخاء في البانيو وأزلت آثار التعب عن جسدي، ثم قمت بغسل قميصي ونشره في الحمام، بينما تركت ملابسي الداخلية داخل كيس بنية طرحها في القمامة كما فعلت في فندق آديلا وهارا من قبل.

كانت الساعة تقترب من الثامنة مساء، والشمس لم ترحل بعد، فهكذا هو حال الصيف في المدن التي تبتعد عن خط الاستواء في النصف الشمالي من الكرة الأرضية.

لكننا مع ذلك استسلمنا للنوم لساعة متأخرة من الليل، ولم يوقظني سوى الشعور بالجوع، وجدتها قد استيقظت قبلي، ومن فورها جهزت لنا سفرة للأكل على الأرض.

كانت قد سخنت علب السردين بوضعها تحت صنبور الماء الساخن لفترة من الزمن. ولم يكن ذلك هو الشيء الوحيد الذي فعلته، بل إنها قامت بغسل ملابسي الداخلية التي تركتها خلفي في الحمام؛ ولأول مرة منذ رحيل والدتي، شعرت بجو الأسرة الدافئ يغمرني بالسعادة.

تجاوزت الساعة منتصف الليل، لكن المدينة مازالت تحتفظ بصخبها والشوارع تمور بالحركة، ومع ذلك لم نبارح الفندق تلك الليلة وأمضيتها بمداعبة الطفل ومتابعة أخبار الهجرة على التلفاز؛ كانت هنالك تظاهرات ودعوات لعدم السماح بدخول موجات أخرى من اللاجئين إلى أوروبا، والمستشارة الألمانية (آنجيلا ميركل) محرجة أمام شركائها الأوربيين، ولاسيما بعد ورود معلومات تفيد بأن تنظيم داعش استغل الفرصة ودس عناصره بين المهاجرين لتنفيذ عمليات انتحارية في أوروبا.

لكن تفكيري كان يحوم كطائر كاسر حول نقطة واحدة هي (ديما) التي تترصدها عيناي المتحفزتان لأدنى حركة قبول تصدر منها؛ إشارة واحدة أو ابتسامة تَنِدُّ عن ثغرها، كانت

ستشكل بداية ولو متواضعة لأبوح لها عما يختلج به قلبي، لكن ذلك لم يحدث؛ فقد كانت تتصرف بتحفظ شديد، حتى أنها لم تخلع أمامي حجابها أو تنظر إلى عيني مباشرة.

كان ذلك محبطاً ويؤجج نيران لهفتي أكثر فأكثر؛ في نهاية المطاف غالبني النعاس، وغططت في نوم عميق، ولم أستيقظ إلا عند السابعة صباحاً على صوت بكاء الطفل الذي كان يطلب الرضاعة من صدرها.

كان الفندق يقدم وجبة إفطار مجانية كما هو حال جميع الفنادق، فتوجهنا إلى المطعم الذي استقبلتنا عند مدخله، موظفة شقراء، فارعة الطول بثغر باسم وقالت بلغة إنكليزية متقنة:

- لديكما طفل جميل.

فشكرتها، وأنا أنظر إلى خدي (ديما) وقد توردا من الخجل. وحالما اتخذنا مجلسنا عند الطاولة، قلت لها محاولاً استثمار إطراء الموظفة الشقراء:

- هل تعلمين أني من عائلة لم تنجب على امتداد ثلاثة أجيال غير ذكر واحد في كل جيل؟ وأنا الذكر الوحيد المتبقي من تلك العائلة، وهأنذا اليوم، أحظى بولد.
- وهل أنت محروم من الخِلفة؟

كان سؤالاً متحفظاً وذكياً في ذات الوقت، ولو كانت فتاة سطحية، لسألتني مباشرة:(هل أنت متزوج، أم لا؟) فتبسمت، وقلت:

- لا أعلم ذلك، فلم أتزوج بعد، لأني لم أعثر على فتاة أحلامي.
- إن كنت لم تعثر عليها من بين فتيات سوريا أجمع، فهل تظن أنك ستجد ضالتك في ألمانيا؟

كان سؤالاً ذكياً، ففكرت أن أي إجابة تصدر عني، لربما ستقودها إلى استنتاج مغاير؛ فحرفت مسار الحديث، وانتصبت واقفاً وأنا أحمل فنجان قهوتي وقلت لها:

- هل ترغبين بفنجان قهوة آخر؟
- أجل، من فضلك.

بعد ذلك توجب علينا الخروج لشراء ملابس ملائمة لنا لكيلا يبدو على هيأتنا أننا من المهاجرين المتسللين عندما نجتاز الجزء الجنوبي من الحدود الهنغارية، فسكان تلك المنطقة في الغالب غير متعاطفين مع المهاجرين ويبلِّغون عنهم الشرطة التي بدورها تعتقلهم وتعيدهم إلى صربيا.

تتبعنا خريطة جوجل، فقطعنا الشارع الذي يقع عليه فندقنا وتخطينا حديقة عامة كبيرة، متوجهين إلى متجر كبير بعدة

طوابق؛ كانت الشوارع تعج بحركة المارة والسائحين؛ نساء نصف عاريات يرتدين سراويل ضيقة وقصيرة وقمصاناً تكشف عن الأثداء التي ودعت الحمالات وتكشف أكثر مما تستر، فترى تكورات اللحم الأبيض الضارب إلى اللون الزهري والذي يبعث على الإغواء، وهي تتماوج مع حركة الجسد؛ لكن كل ذلك لم يغوني ويثيرني مثلما يفعل جسد (ديما) المستور بقميص طويل فضفاض، والذي يجتذبني كاجتذاب الفراشة لرحيق أزهار الربيع.

دخلنا المتجر واشتريت بدلة رجالية أنيقة وقميصاً وربطة عنق وحذاءً جلدياً يتناسب مع البدلة، بينما انتقت هي فستان سهرة أسود وحذاءً بكعبٍ عالٍ بعض الشيء، وحمالة ترتديها الأمهات ليسهل عليهن حمل أطفالهن، وملابس أطفال، ثم قفلنا عائدين إلى الفندق.

كانت ماتزال أمامنا بضع ساعات لنغادر الفندق، فاقترحت عليها أن تأخذ هي والطفل قسطاً من النوم، استعداداً لرحلة الليل. فقالت لي:

- لم أستطع النوم في الليلة الماضية.
- ولماذا؟ أكان ذلك بسبب الطفل؟
- كلا، سأقول لك الحقيقة، إنه بسببك.

- بسببي!
- نعم هذه هي الحقيقة، فلم يكن بوسعي وضع ثقتي هكذا بكل بساطة، بشخص غريب عني، والنوم معه في غرفة واحدة، ولا سيما أني فقدت الثقة بجميع الرجال بعد الذي جرى علي؛ كنت أحسب طوال الليل أنك ستستغل نومي ويدفعك شيطانك لتنقض علي.
- حسناً ما دمت تشعرين هكذا نحوي، فسأترك لك الغرفة لتأخذي قسطك من النوم من دون قلق.

كنت قد مددت يدي نحو مقبض الباب؛ عندما نهضتْ تستحلفني:

- أرجوك لا تفعل، فأنا ما عدت مرتابة بك وبنواياك؛ فأنت تبدو مختلفاً عن البقية، عندك شهامة وشرف، وكنْتَ نائماً كطفل وديع.
- حسناً، سأدخن سيجارة في الصالة وأعود.

خرجت من الغرفة كابحاً رغبة رعناء كانت تدعوني للقفز من شدة الفرح، فكسب الثقة هو بداية الطريق لبلوغ قلبها.

عصر ذلك اليوم انطلقنا نحو مدينة (سوبوتيتستا) التي تبعد عن الحدود المجرية (الهنغارية)، نحو عشرة كيلومترات، ومن هناك بسيارة أجرة إلى منطقة (كلبيا) الحدودية والتي ستشكل

العقبة الحقيقية الوحيدة أمامنا؛ فالمجر شرعت بغلق أبوابها بوجه الأعداد الهائلة وغير المتوقعة للمهاجرين.

سرنا بمحاذاة الطريق الرئيس في كتلة بشرية هائلة وتخطينا برج المراقبة الصربي؛ وبعد نصف ساعة وصلنا إلى الحدود الفاصلة بين صربيا والمجر، وكانت عبارة عن مكعبات كونكريتية، وِضعَتْ كعلامات لترسيم الحدود.

قطعنا نصف كيلو متر بسرعة عالية تحت جنح الظلام، ليصادفنا بعدها من الجهة اليسرى، حقل ذرة؛ سرنا متخفين بين كيزانها العالية، ولا بد من أننا تسببنا بتلف المحصول أثناء اختراقه، ولربما كان ذلك سبباً رئيساً لحنق الأهالي على المهاجرين.

انتهى حقل الذرة عند أرض مكشوفة عرضها بضع مئات من الأمتار تفضي إلى غابة كثيفة الأشجار؛ وكان ينبغي علينا قطع تلك المساحة المكشوفة من الأرض بأقصى سرعة ممكنة والتسلل إلى الغابة، لأن دوريات الشرطة تراقب تلك البقعة من الأرض على مدار الساعة.

طلبتُ من (ديما) قبل أن نشرع بالركض، أن تعطيني الطفل لأحمله أثناء الجري؛ ولكنها فضَّلت أن تحمله هي، تاركة حقيبتها لأحملها عنها.

كان كل شيء يسير بسلاسة؛ وقطعتُ المسافة كلها بخطوات سريعة وواسعة ودخلت الغابة؛ لكن (ديما) التي تخلفت عني بحدود خمسين متراً، تعثرت وأصيبت ركبتها بأذى، وعلا صوت الطفل بالصراخ، وافتضح أمرها عندما سلطت سيارة الشرطة ضوء الكاشف نحوها، ونادوا عليها لتتوقف.

شعرت بكبدي يفرى عندما اعتقلتها الشرطة، وكان أمامي خياران صعبان، فإما التخلي عن(ديما) والمضي قدماً لتحقيق حلمي في بلوغ ألمانيا، أو الخروج من مخبئي ليعتقلوني أنا الآخر.

لم يستغرق مني التفكير غير عشر من الثانية، لأجد نفسي منحازاً لها فكشفت عن نفسي للشرطة التي اقتادتنا إلى المخفر القريب، حيث أمضينا الليل فيه ونحن في غاية التعب الإرهاق.

وفي اليوم التالي أعادونا إلى صربيا، فأخذنا الباص إلى بلغراد. كانت (ديما) واجمة طيلة الرحلة ولم تتبادل معي أي كلمة ولم تصدر عنها سوى همهمات للطفل الرضيع لتهدئته.

سألتها:

- لم أنتِ حزينة هكذا؟

فردت على بحزن:

- لأنني أشعر بالإحباط والذنب.
- الذنب من ماذا؟
- أشعر بالذنب، لأني كنت السبب فيما حصل.

فقلت لها محاولاً التخفيف عنها:

- ما حدث هو سوء حظ ليس إلا، والخير فيما اختاره الله.
- ونعم بالله؛ ولكني أشعر بأن حظي نحس، وقد أقحمتك فيه، فلولاي لكنت الآن في ألمانيا.
- ومن عندي هناك؟ غير صديقي (سلام) الذي لا بد وأن يشق طريقه في يوم ما بعيداً عني. وأنا كنت سأفعل ذات الشيء معه، وأنتِ! من لديك هناك؟ ولماذا ألمانيا تحديداً، وليست صربيا مثلاً أو اسطنبول؟
- لا يوجد عندي أحد هناك، ولكن ألمانيا تستقبل اللاجئين وتمنحهم فرصة للرعاية والعمل أكثر من غيرها من الدول.
- إذن هي الرعاية ما تهمك!
- وما الذي تحتاجه فتاة وحيدة في هذا العالم مع طفل صغير، غير ذلك؟

- هل تثقين بي؟
- على الرغم من أني أعرفك منذ أربعة أيام فقط، لكني أظن بأنك أهل للثقة، فلم أرَ منك سوءًا.
- دعيني أرعاك إذن!
- ولكن، لماذا تفعل معي كل ذلك دون مقابل؟ هل أنت مدين لأحد من أفراد أسرتي وتود سداد ذلك الدين؟
- ليس ذاك؛ ولكني سأخبرك.

سردت لها تفاصيل قصة حياتي، وكيف ولجت إلى حياتها. كانت الدموع تنهمر من عينيها أثناء إصغائها لي، فكلانا ابتليَّ بمرارة فقد جميع أفراد أسرته، وهارب من رِبقة الإرهاب،

ثم طلبت يدها للزواج، فوافقت؛ وعندما سألتها إن كانت ملكة النحل قد حصلت على ذكرها؟ تبسمت مثل ملاك، وقالت:

- ولكن ملكات النحل يتسببن بمصرع أولئك الذكور.

فقلت لها بِوَلهٍ:

- فداكِ، يا روحي.

ذهبنا الى الجامع الكبير في بلغراد، وعقدنا قراننا وأمضينا شهر العسل هناك؛ ثم وبعد تفكير مليّ قررنا العيش في تركيا لعدم وجود حساسية تجاه الأجانب، وهي الأقرب إلى بلدينا جغرافياً وفكرياً، رغم اللباس العلماني الذي ترتديه.

وهناك قدمنا طلباً للهجرة عن طريق المفوضية السامية لشؤون اللاجئين.

حل فصل الخريف منذ أسابيع بدفئه الساحر وجماله البهي الذي يلون به أوراق الشجر برونق كامن، في فرصتها الأخيرة للتشبث بأغصانها، قبل الإنذار الأخير برحيلها المحتوم، وبأمسياته الموشحة بنسائم ندية وصاخبة.

كنت أشعر أن أبواب السعادة أخذت تُفتح أمامي، وأن الحياة أنصفتني أخيراً، ومنحني مباهجها في عالمنا الجديد الذي بدأنا نألف العيش فيه، ونكسر حاجز اللغة شيئاً فشيئاً.

ولأني لم أكن مضطراً للبحث عن فرصة عمل، بعد أن تكفل ما أتقاضاه من إيجار البيت والمحل بتوفير عيش مريح لنا، لذا قررت ارتياد معهد لتعلم اللغة التركية، تمهيداً لإكمالي الدراسات العليا في الجامعة.

أنهى (حسام الدين) عامه الثالث وأصبحت خطواته متزنة عند المشي، وكذلك كلماته التي أخذت تتحول بالتدريج إلى جمل صغيرة؛ كان يناديني بابا، وكيف لا؟ فأنا من أرعاه مع نصفي الثاني التي هي ماما، هذه هي سنة الحياة. سألتني (ديما) إن كان شعوري نحوه سيتبدل إذا ما وَلَدَتْ طفلي الذي ينمو حالياً في أحشائها. فسألتها بدوري:

- وهل كان شعورك يختلف معه، وقد أنجبته من رجل أخذك غصباً؟
- كلا، فهو جزء مني، ولا ذنب له بسبب أبيه؛ ألم تسمع بيت الشعر الذي تمثلت به (هند) التي تزوجها الحجاج بن يوسف الثقفي غصباً؟ عندما أنشدت:

(فإن ولدت فحلاً فلله درها. وإن ولدت بغلاً فقد جاء به البغل).

فضحكت على نباهتها، وتمثلتُ لها ببيت شعر كذلك:

- (دَارَيْتُ أَهْلَكَ في هَوَاكَ وَهُمْ عِدى ـ ولأَجْلِ عَيْنٍ ألفُ عَيْنٍ تُكرَمُ). ومن أجلك، سأبقى أحبه كأحد أولادي. أولم أتبعه باسمي في الوثائق الرسمية؟

لكن حياتي الهانئة لم يكن مقدراً لها الاستمرار، فذات شعرت (ديما) بالدوار الذي يصيب الحوامل عند الأشهر الأولى، أثناء نزولها على السلم، فهوت إلى الأسفل وارتطم رأسها بالبلاط، لتصاب بنزيف داخلي حاد؛ كنت حينها في معهد اللغة وعندما عدت البيت، كان قد مر على الحادث أكثر من ساعة وهي في مكانها مغمي عليها، وعند رأسها كان يجلس(حسام) الذي استيقظ من نومه وهو يغص بالبكاء. اتصلتُ بالإسعاف؛ لكن السيارة وصلت بعد فوات الأوان، فقد فارقت الحياة. (ديما)..

قمري الذي أضاء عتمة حياتي. (ديما).. التي رتقت جراحاتي النازفة. رحلت بذات النهاية المفجعة لـ (بيلا)، الفتاة الشركسية في رواية (ليرمنتوف)، والتي طالما شبهت نفسها بها.

رحلت وتركتني وحيداً مع أحزاني وغربتي وطفلٍ لا أتدبر أمري معه بسهولة، وتركت المعهد لأتفرغ لرعايته، وما عدت أخرج إلا للتبضع، وحتى في تلك الحالة، كنت أصحبه معي خشية أن يصيبه مكروه؛ وأضحت سلوتي الوحيدة هي التحدث عبر الإنترنيت مع عمتي وخالي.

كانت عمتي تلح على بالعودة إلى العراق الذي مضى عامان كاملان على مغادرتي له، وقد اشتقت إليهم كثيراً.

- ارجع يا ولدي إلينا؛ من لك هناك في الغربة. عد وتزوج وابدأ حياة جديدة، إنك في التاسعة والعشرين من العمر؛ صدقني إنه من الجميل أن ترزق بأولاد يكبرون وأنت في مقتبل شبابك، ثم إنك لست بحاجة للبحث عن وظيفة إن لم تكن راغباً بها.

كان الكلام ينساب من فمها عذباً ورقيقاً، مفعماً بحنان وعطف أمٍ تخشى على عزيزها من التِيه والضياع في عالم بعيد وغريب.

كانت عمتي محقة تماماً، فماذا لو حدث لي مكروه مثلما حدث لـ(ديما)؟ ماذا بوسع هذا الصبي ذي الثلاثة أعوام فعله غير الجلوس عند رأسي والبكاء؟ ثم إن الكثيرين ممن قدر لهم ووصلوا أوروبا، وجدوها غير التي حلموا بها. أوروبا الرافضة لهم كما يرفض الجسم الأعضاء الغريبة التي تزرع فيه؛ و(حسام)، وإن كان مسجلاً باسمي في الوثائق الرسمية وأحبه كما ينبغي لأب أن يحب ولده، إلا أنه في الآخر ليس من صلبي.

في نهاية المطاف، حزمت أمري، ورزمت حقائبي، وعدت إلى أحضان بغداد وأحضان عمتي وخالي وحضن آخر يشعرني بدفء إنسانيته وحبه الكبير لي؛ إنه حضن (فاطمة) بنت خالي وعمتي، تلك الوردة التي تفتحت وأصبحت كاملة الأنوثة، والتي اقترنت بها بعد ثلاثة أشهر من عودتي، على أمل أن تمنحني الحياة فرصة لنسيان قائمة أحزاني وتنهي هزائمي، أو على الأقل ترجئها إلى وقت آخر، ريثما أمنح العائلة وريثاً يحمل اسمها لجيل آخر.

انتهت